

عِيارُ الشِّعر

ابن طباطبا


عيار الشعر
ابن طباطبا


عيار الشعر
ابن طباطبا

PJ7541. I268 2015

ابن طباطبا، محمد بن أحمد، ت.934.
عيار الشعر/ تأليف: محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي؛ إعداد: خليل الشيخ.- ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2015.
ص.؛ سم. (سلسلة عيون النثر العربي القديم)
تدمك:
1. الشعر العربي -- تاريخ ونقد.
أ. شيخ، خليل. ب. العنوان.

إعداد:
د. خليل الشيخ

خطوط:
الفنان التشكيلي الخطاط محمد مندي





الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380
publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

مقدِّمة

يجدُ المتأمّل في كِتاب "عيار الشِّعر" لابن طباطبا العلوي (322هـ) الكثير من الرؤى النقديّة التي تبيّن اهتمامه بالشِّعر وسعيه للبحث عن معايير خاصّة به لفهمه وإدراك ماهيته وسعي ابن طباطبا في هذا الجانب النقدي لا يكاد يختلف عن جهود النُّقَّاد في القرنين الثالث والرابع الهجريين، الذين شُغلوا بالشِّعر وسعوا إلى تقديم دراسات عنه تناقش جوانب مختلفة فيه

توقّف ابن طباطبا عند مفهوم الشِّعر فوصفه بقوله: "الشِّعْرُ- أَسْعَدَكَ اللهُ- كلامٌ منظومٌ بَان عَن المنثور الَّذِي يَسْتعملُهُ النَّاس فِي مخاطباتهم بمَا خُصَّ بِهِ من النَّظم الَّذِي إنْ عُدِل بِهِ عَن جِهَتِهِ مَجَّتْهُ الأَسْمَاعُ وفَسَدَ على الذَّوْق ونَظْمُهُ معلومٌ محدودٌ؛ فَمَنْ صَحَّ طَبْعُهُ وذَوْقُهُ لم يَحْتَجْ إِلَى الاستعانَةِ على نَظْمِ الشِّعر بالعَرُوض الَّتِي هِيَ مِيزَانه، وَمن اضطَرَب عَلَيْهِ الذَّوقُ لم يَسْتَغْنِ عَن تَصْحيحهِ وتَقْويمهِ بمَعْرِفَةِ العَروضِ والحِذْقِ بهَا حَتَّى تَصِير معرفَتُهُ المُسْتفادةُ كالطَّبع الَّذِي لَا تَكَلُّفَ مَعَه"

يتكرّر مصطلح النَّظم خمس مرّات في هذا التعريف، وتكراره في هذا السياق يسعى كي يؤكّد السِّمة الجوهريَّة الفارقة بين الشِّعر والنثر، فالنَّظم هو الذي يتولَّى تحسين وقع الشِّعر في السمع والذوق، أمَّا العروض فهو ميزان نَظْم الشِّعر لا غير

لكنّ مفهوم النَّظْم في هذا السياق لا يقتصر على مفهوم الوزن بقَدْر ما يشير إلى مصطلح النَّظْم الذي استقرَّ عند عبد القاهر الجرجاني في "دلائل الإعجاز" وصار بمثابة المفتاح الدالّ على النصّ القرآني

يعني ابن طباطبا بالنَّظْم في هذا السياق ما يمكن أنْ يسير إلى الاتّساق والانسجام، وهو ما يؤكّده عندما يشير في موضع آخر إلى أنّ "أحسَنُ الشّعْرِ مَا يَنتَظِمُ فِيهِ القَوْل انتظامًا يَتَّسِقُ بِهِ أَوَّلُهُ مَعَ آخِرِهِ على مَا يُنَسِّقُهُ قائِلَهُ"، لهذا فإنّ الشاعر لا يحتاج إلى العروض إذا صدر في شعرِه عن طبع سليم أو عن موهبة فطريّة، إضافةً إلى ثقافة مكتسبة

وهنا تتجلى المسألة الثانية في "عيار الشَعر" وهي ثقافة الشاعر، حيث يقول ابن طباطبا: "وللشَعر أدواتٌ يجبُ إعدادُهَا قَبْلَ مَرَامِهِ وتكلُّفِ نَظْمِه، فَمَنْ نَقَصَتْ عَلَيْهِ أداةٌ من أدواته لم يَكْمُلْ لَهُ مَا يَتَكَلَّفُهُ مِنْهُ، وبَانَ الخَلَلُ فِيمَا يَنْظِمهُ، ولحِقَتْهُ العُيوبُ من كلِّ جِهَةٍ فَمِنْهَا: التَّوَسُّعُ فِي عِلْم اللّغة، والبراعةُ فِي فَهْم الإعرَاب، والروايةُ لفُنُونِ الآداب، والمعرفةُ بأيَّام النَّاس وأنْسَابِهم ومَنَاقِبِهم وَمَثَالِبِهِمْ، والوقوفُ على مَذَاهب العَرَب في الشِّعْر، والتَّصَرُّفُ فِي مَعَانِيه فِي كلِّ فَنٍّ قَالَتْه العَرَبُ فِيهِ وسلوكُ مناهجها فِي صِفَاتِهَا ومُخَاطَبَاتِهَا وحِكَايَاتِهَا وأمْثَالِهَا "

لا يكاد ابن طباطبا يختلف عن ابن قتيبة في هذا الرأي، فهو يحصر المعرفة الضروريّة في اللغة والأدب والتاريخ والجمال عندما يقرر أنّ: "جَماعُ هَذِه الأدوات كمالُ العَقْلِ الَّذِي بِهِ تَتَمَيَّزُ الأضدادُ، ولزومُ العَدْل، وإيثارُ الحَسنِ، واجتنابُ القَبيحِ، ووَضْعُ الأشْياءِ مَوَاضِعَهَا"

يضع ابن طباطبا يده على مسألة مهمّة تتّصل بعلاقة الشاعر بالموروث، وهي مسألة نقديّة ترتبط بمسألة الإبداع وبجدل الاتّصال والانفصال عن هذا الموروث وهنا نرى ابن طباطبا يتحدّث عن لحظة الإبداع الشِّعري فيقول: "فإذا أرَادَ الشَّاعِرُ بناءَ قَصيدةٍ مخَّضَ المَعْنى الَّذِي يُريد بنَاءَ الشِّعر عَلَيْهِ فِي فِكْرِهِ نَثْرًا، وأعَدَّ لَهُ مَا يُلْبِسُهُ إيَّاهُ من الأَلْفَاظ الَّتِي تُطَابِقُهُ، والقوافِي الَّتِي توافِقُهُ، والوَزْنِ الَّذِي سَلَسَ لَهُ القَوْلُ عَلَيْهِ، فَإذا اتَّفَقَ لَهُ بيتٌ يُشَاكِلُ المَعْنَى الَّذِي يرومُهُ أثْبَتَهُ وأعْمَلَ فِكْرَهُ فِي شُغْل القوافِي بِمَا تَقْتَضِيهِ من الْمعَانِي على غير تنسيقٍ للشِّعرِ وتَرْتيبٍ لفنونِ القَوْلِ فِيهِ، بل يُعَلِّقُ كلَّ بيتٍ يَتَّفِقُ لَهُ نَظْمُهُ على تَفَاوُتِ مَا بَيْنَهُ وبَيْنَ مَا قبلَهُ، فَإذا كَمُلَتْ لَهُ المَعَاني، وكَثُرت الأبياتُ، وَفَّق بَينهَا بأبياتٍ تكونُ نظامًا لَهَا، وسِلْكًا جَامعًا لما تشَتَّتَ مِنْهَا ثمَّ يتأمَّلُ مَا قد أدَّاه إِلَيْهِ طَبْعُهُ، ونَتَجَتْهُ فِكْرَتُهُ فَيَسْتَقْصِي انتقادَهُ، ويَرُمُّ مَا وَهَى منهُ، وَيُبْدِلُ بكُلِّ لَفْظَةٍ مُسْتكرهَةٍ لَفْظَةً سَهْلَةً نَقِيَّةً وإن اتَّفَقَتْ لَهُ قافيةٌ قد شَغَلَهَا فِي مَعْنًى من الْمعَانِي واتَّفَقَ لَهُ مَعْنًى آخر مُضَادٌّ للمعنى الأوَّل، وكانَت تِلْكَ القَافيةُ أوْقَعَ فِي المَعْنَى الثَّاني مِنْهَا فِي المَعْنى الأوَّلِ نَقَلها إِلَى المَعْنى الْمُخْتَار، الَّذِي هُوَ أحسَنُ، وأبْطَلَ ذَلِك البَيْت، أَو نَقَضَ بعضَهُ وطَلَبَ لمعنَاهُ قافيةً تُشَاكِلُهُ ويكون كالنَّسَّاج الحاذِق الَّذِي يُفَوِّفُ وَشْيَهُ بأحسَنِ التَّفْويف ويُسَدِّيه ويُنيرُهُ، وَلَا يُهَلْهِلُ شَيْئاً منهُ فَيَشِينهُ وكالنَّقَّاش الرَّقيقِ الَّذِي يَضَعُ الأَصْبَاغَ فِي أَحْسَنِ تَقَاسِيمِ نَقْشِهِ، ويُشْبِعُ كلَّ صِبْغٍ مِنْهَا حَتَّى يتضاعَفَ حُسْنُهُ فِي العَيَانِ، وكناظِمِ الجَوْهر الَّذِي يُؤَلِّفُ بَين النَّفيس مِنْهَا والثَّمين الرَّائق، وَلَا يشين عُقودَ بأنْ يُفَاوتَ بَين جواهِرِهَا فِي نَظْمها وتَنْسيقها، وَكَذَلِكَ الشَّاعرُ "

إنّ حديث ابن طباطبا عن الإبداع الشِّعري يوضح ارتباط هذا الإبداع بالإرادة التي تجري تحت رقابة العقل فليس الشِّعر في نظره إلهامًا أو جيشان عاطفة، أو فيضًا كما تبيّن أفعال مثل: أراد الشاعر بناء قصيدة، ومخضّ المعنى، ويتأمّل، ويستقصي، وأبطل، ونقض، وطلب لكنّ حضور العقل في الكتابة الشّعرية لا يلغي دور الموهبة وإنما يؤكّدها، لأنّها هي منطلق الكتابة لكنّ حديث ابن طباطبا عن التشبيه يبيّن، كما أشار إحسان عباس، أنّ التراث يبدو شبيهًا بالمنجم الأسطوري الذي لا بدّ أنْ يغترف الشاعر منه عند الحاجة، فهذه التشبيهات مرتبطة بسنن كبرى عند العرب على الشاعر أنْ يثقفها ليجيء شعره كأشعارهم

إنّ كون الكتابة الشِّعرية عند ابن طباطبا قائمة على الوعي المطلق، ولا سيَّما فيما يخصّ الألفاظ وأبيات الشِّعر، يجعل الكتابة الشّعرية أشبه بالرسالة تقوم على المعنى، فإذا أراد الشاعر نَظْمًا وضع

المعنى نثرًا في ذهنه ثمّ أخذ في صياغته بألفاظ مطابقة، وقد تأتيه أبيات غير متناسقة، فيأخذ في تنسيقها حتى تطّرد وتَنْتَظِم وفي ضوء هذا قارَب ابن طباطبا بين الشِّعر والرسالة من جانبين، هما: وحدة المعنى، ووحدة البناء فالمعنى يبقى واحدًا في الحالتين، لكنّ الفارق يكمن في الصياغة الشِّعرية، أمّا وحدة البناء فتتجلّى في حُسْن التخلّص وبراعة الانتقال من فكرة إلى أخرى ولهذا يقول إنّ:" الشعر رسائل معقودة، والرسائل شعر محلول"

لهذا كان من الطبيعي أنْ يتحدّث ابن طباطبا عن مأزق الشَّاعر المُحْدَث من زاوية قلّة المعاني؛ لأنّ المتقدّم لم يبقِ الكثير للمُحدَث؛ وأنّ يتحدّث عن السرقات، ويتوقّف عند المتلقي ليوضح أنّ تلقي الشِّعر يكون من خلال تجاوب الحسّ والعقل، لهذا يجمع الشِّعر في نظره بين المتعة الجماليّة وتوجيه السلوك كما عبّر أبو تمام:

وَلَولا خِلالٌ سَنَّها الشِّعرُ ما دَرى

بُغاةُ النَدى مِن أَينَ تُؤتى المَكارِمُ

وكلُّ ذلك مرتبط بالصِّدق وليس بالكذب، وقد أشار الدارسون إلى أنواع متعدّدة من الصِّدق عنده، كالصِّدق التاريخي والصِّدق الأخلاقي والصِّدق التصويري، من هنا ظلّ ابن طباطبا يَصْدُر عن رؤية تقوم على الاعتدال والوعي وضرورة تسلسل المعاني في القصيدة

قَالَ أَبُو الحَسَن مُحَمد بن أَحْمد بن طَبَاطَبَا العَلَوِيُّ- رحمة اللهِ عليه:

وفَّقَك اللهُ للصَّواب وأعانَكَ عَلَيْهِ، وجَنَّبَكَ الخَطَأ وباعَدَك مِنْهُ، وأدامَ أُنْسَ الآداب باصطفائِك لَهَا، وحياةَ الحكمةِ باقتنائك إيَّاها فهمتُ- حاطك الله- مَا سَأَلت أنْ أصِفَهُ لَك من عِلْم الشِّعْر، والسَّبَب الَّذِي يُتَوصَّلُ بِهِ إِلَى نَظْمِهِ، وتَقْريب ذَلِك على فَهْمِكَ، والتَّأنِّي لِتَيْسيرِ مَا عَسُرَ مِنْهُ عَلَيْك وَأنا مُبَيِّنٌ مَا سَأَلْتَ عَنهُ، وفاتحٌ مَا اسْتَغْلَقَ عليكَ مِنْهُ إِن شَاءَ اللهُ تعَالى

مَفْهُومُ الشِّعْر

الشِّعْرُ- أَسْعَدَكَ اللهُ- كلامٌ منظومٌ بَان عَن المنثور الَّذِي يَسْتعملُهُ النَّاس فِي مخاطباتهم بمَا خُصَّ بِهِ من النَّظم الَّذِي إِنْ عُدِل بِهِ عَن جِهَتهِ مَجَّتْهُ الأَسْمَاعُ وفَسَدَ على الذَّوْق وِنَظْمُهُ معلومٌ محدودٌ؛ فَمَنْ صَحَّ طَبْعُهُ وذَوْقُهُ لم يَحْتَجْ إِلَى الاستعانَةِ على نَظْمِ الشِّعر بالعَرُوض الَّتِي هِيَ مِيزَانه، وَمن اضطَرَب عَلَيْهِ الذَّوقُ لم يَسْتَغْنِ عَن تَصْحيحهِ وتَقْويمهِ بمَعْرفِة العَروضِ والحِذْقِ بهَا حَتَّى تَصِير معرفَتُهُ المُسْتفادةُ كالطَّبع الَّذِي لَا تَكَلُّفَ مَعَه

أدَواتُ الشِّعْر

وللشِّعرِ أدواتٌ يجبُ إعدادُهَا قَبْلَ مَرَامِهِ وتكَلُّفِ نَظْمِه، فَمَنْ نَقَصَتْ عَلَيْهِ أداةٌ من أدواتهِ لم يَكْمُلْ لَهُ مَا يَتَكَلَّفُهُ مِنْهُ، وبَانَ الخَلَلُ فِيمَا يَنْظمهُ، ولحِقَتْهُ العُيوبُ من كلِّ جهَةٍ فَمِنْهَا: التَّوَسُّعُ فِي عِلْم اللُّغة، والبراعةُ فِي فَهْم الإِعرَاب، والروايةُ لفُنُونِ الآدابِ، والمعرفةُ بأَيَّام النَّاس وأنْسَابِهم ومَنَاقِبهم وَمَثَالِبِهِمْ، والوقوفُ على مَذَاهب العَرَب في الشِّعْر، والتَّصَرُّفُ فِي مَعَانِيه فِي كلِّ فَنٍّ قَالَتْه العَرَبُ فِيهِ، وسلوكُ مناهجها فِي صِفَاتِهَا ومُخَاطَبَاتِهَا وحِكَايَاتِهَا وأمْثَالِهَا، والسَّنَنِ المستعملة مِنْهَا، وتَعْرِيضِها وتَصْريحِها، وإطنابِهَا وتَقصيرِهَا، وإطالتِهَا، وإيجازِهَا، ولُطْفِهَا وخَلَابتها، وعُذُوبة ألفاظِها، وجزالَةِ مَعَانيها، وحُسْنِ مَبَاديها، وحَلاوةِ مَقَاطِعِها، وإيفَاءُ كلِّ مَعْنًى حَظَّهُ من العبَارة، وإلبَاسُهُ مَا يُشَاكِلُهُ من الأَلْفَاظ حَتَّى يَبْرُزَ فِي أَحْسَنِ زيٍّ وأَبْهَى صُورَة، واجتنابُ مَا يَشِينُهُ من سَفْسَافِ الْكَلَام وسَخِيفِ اللَّفْظِ، والمَعَاني المُسْتَبْرَدَةِ، والتَّشْبيهاتِ الكاذبة والإشاراتِ المَجْهولة، والأَوْصاف البَعيدةِ، والعباراتِ الغَثَّة، حَتَّى لَا يكونَ مُلَفَّقًا مَرْقُوعًا، بل يكونُ كالسَّبيكة المُفْرَغَةِ[1]، والوَشْي المُنَمْنَم، والعِقْد المُنَظَّم، والرِّيَاضِ الزاهرة، فتسابِقُ معانيهِ ألفاظَهُ، فَيَلْتَذُّ الفَهْمُ بِحُسْنِ مَعَانِيه كالتِذَاذِ السَّمْع بمونِق لَفْظِه[2]، وتكونُ قَوَافيهِ كالقَوَالبِ لمعانيه، وتكونُ قَوَاعِدَ للْبِنَاء يَتَرَكَّبُ عَلَيْهَا ويَعْلو فوْقَها، ويكونُ مَا قبلهَا مَسبُوقًا إِلَيْهَا، وَلَا تكون مَسْبُوقَةً إِلَيْهِ فَتَقْلَق فِي مَوَاضِعها، وَلَا تُوافِق مَا يَتَّصِلُ بهَا، وَتَكون الألفاظُ مُنْقَادَةً لما تُرَادُ لَهُ، غَيْرَ مُسْتَكرَهَةٍ وَلَا مُتْعَبَةٍ، مُخْتَصَرةَ الطُّرُق، لَطِيفةَ المَوَالِج[3]، سَهْلَةَ المَخَارج

وَجَماعُ هَذِه الأدوات كمال العَقْلِ الذِي بِهِ تَتَميَّزُ الأضدادُ، ولزومُ العَدْل، وإيثارُ الحَسنِ، واجتنابُ القَبيحِ، ووَضْعُ الأشْياءِ مَوَاضِعَهَا

بِنَاءُ القَصِيدَة

فإذاَ أرَادَ الشَّاعِرُ بناءَ قَصيدةٍ مخَّضَ المَعْنى الَّذِي يُريد بِنَاءَ الشِّعر عَلَيْهِ فِي فِكْرِهِ نَثْرًا، وأعَدَّ لَهُ مَا يُلْبِسُهُ إيَّاهُ من الألْفَاظ الَّتِي تُطَابِقُهُ، والقوافي الَّتِي توافِقُهُ، والوَزْنِ الَّذِي سَلُسَ لَهُ القَوْلُ عَلَيْهِ، فَإذا اتَّفَقَ لَهُ بيتٌ يُشَاكِلُ المَعْنَى الَّذِي يرومُهُ أثْبَتَهُ وأعْمَلَ فِكْرَهُ فِي شُغْل القوافي بِمَا تَقْتَضِيهِ من الْمعَانِي على غير تنسيقٍ للشِّعر وتَرْتيبٍ لفنونِ القَوْلِ فِيهِ، بل يُعَلِّقُ كلَّ بيتٍ يَتَّفِقُ لَهُ نَظْمُهُ على تَفَاوُتِ مَا بَيْنَهُ وبَيْنَ مَا قبلَهُ، فَإذا كَمُلَتْ لَهُ المَعَاني، وكَثُرت الأبياتُ، وَفَّق بَينهَا بأبياتٍ تكونُ نظامًا لَهَا، وسِلْكًا جَامعًا لما تشَتَّتَ مِنْهَا ثمَّ يتأمَّلُ مَا قد أدَّاه إلَيْهِ طَبْعُهُ، ونَتَجَتْهُ فِكْرَتُهُ فَيَسْتَقْصِي انتقادَهُ، ويَرُمُّ مَا وَهَى[4] منهُ، وَيُبْدِلُ بكُلِّ لَفْظَةٍ مُسْتكرهَةٍ لَفْظَةً سَهْلَةً نَقِيَّةً

وإن اتَّفَقَتْ لَهُ قافيةٌ قد شَغَلَهَا فِي مَعْنًى من الْمعَانِي واتَّفَقَ لَهُ مَعْنًى آخر مُضَادٌّ للمعنى الأوَّل، وكانَت تِلْكَ القَافيةُ أوْقَعَ فِي المَعْنى الثاني مِنْهَا فِي المَعْنى الأوَّلِ نَقَلها إلَى المَعْنى الْمُخْتَار، الَّذِي هُوَ أحسَنُ، وأبْطَلَ ذَلِك البَيْت، أو نَقَضَ بعضَهُ، وطَلَبَ لمعنَاهُ قافيةً تُشَاكِلُهُ، ويكون كالنَّسَّاج الحاذِق الَّذِي يُفَوِّفُ[5] وَشْيَهُ بأحسَنِ التَّفْوِيف ويُسَدِّيه[6] ويُنيرُهُ[7]، وَلَا يُهَلْهِلُ شَيْئا منهُ فَيَشِينهُ

وكالنَّقَّاش الرَّقيقِ الَّذِي يَضَعُ الأصْبَاغَ فِي أَحْسَنِ تَقَاسِيم نَقْشِهِ، ويُشْبِعُ كلّ صِبْغٍ مِنْهَا حَتَّى يتضاعَفَ حُسْنُهُ فِي العَيَانِ، وكناظِمِ الجَوْهر الَّذِي يُؤَلِّفُ بَين النَّفِيس مِنْهَا والثَّمين الرَّائقِ، وَلَا يشين عُقودَ بأنْ يُفَاوتَ بَين جواهِرهَا فِي نَظْمها وتَنْسيقها، وَكَذَلِكَ الشَّاعرُ إذا أسَّسَ شِعْرَهُ على أنْ يَأتِي فِيهِ بالكلام البَدَويِّ الفَصِيح لم يَخْلطْ بِهِ الحَضَرِيَّ المُوَلَّدَ، وَإذا أتَى بلَفْظَةٍ غريبةٍ أتْبَعَهَا أخَواتِها

وَكَذَلِكَ إذَا سَهَّلَ ألفاظَهُ لم يَخْلط بهَا الألفَاظَ الوَحْشِيَّةَ النافرةَ الصَّعْبَةَ القياد، ويقفُ على مَرَاتِب القَوْلِ والوَصْفِ فِي فَنٍّ بَعْد فَنٍّ، ويتَعَمَّدُ الصِّدقَ، والوفقَ فِي تَشْبيهاته وحِكَايَاتِه، ويُحْضِرُ لبَّهُ عندَ كلِّ مُخاطبةٍ وَوَصْفٍ، فَيُخَاطبُ الملوكَ بِمَا يَسْتَحِقُونَهُ من جَلِيلِ المُخَاطباتِ، ويَتَوقَّى حَطَّها عَن مَرَاتبها وأنْ يَخْلِطَهَا بالعَامَّةِ، كمَا يَتَوقَّى أنْ يرفَعَ العَامَّةَ إلَى دَرَجَات المُلُوك، وَيُعِدُّ لكُلِّ مَعْنًى مَا يَلِيق بِهِ،

ولكلَ طبَقَةٍ مَا يُشَاكِلهَا حتّى تكون الاستفادةَ من عَقلهِ فِي وَضْعِه الكَلامَ مواضِعَهُ أكْثرَ من الاستفَادةِ من قَوْلِه فِي تَحْسِين نَسْجِهِ، وإبدَاع نَظْمهِ، ويَسْلكُ مِنْهَاجَ أصْحَابِ الرَّسائل فِي بَلاغَاتهم وتَصَرُّفهم فِي مُكَاتَبَاتهم، فإنَّ للشِّعْرِ فُصُولًا كفُصُول الرَّسَائل، فيحتَاجُ الشَّاعِرُ إلَى أنْ يَصِلَ كلامَهُ- على تَصرُّفِهِ فِي فُنُونِه- صِلَةً لَطِيفَة فيتخلَّصُ من الغَزَلِ إلَى المَدِيح، وَمن المَدِيحِ إلَى الشَّكْوَى، وَمن الشَّكْوَى إلَى الاستماحَة، وَمن وَصِفْ الدِّيَار والآثَار إلَى وَصْف الفيَافي والنُّوق، وَمن وَصْفِ الرُّعُود والبُروق إلَى وَصْفِ الرِّياض والرُّوَّاد، وَمن وَصْف الظُّلْمَان والأعْيار إلَى وَصْفِ الخَيْلِ والأسْلحِة، وَمن وَصْف المفاوز والفَيافي إلَى وَصْف الطَّردِ والصَّيْدِ، وَمن وَصْف اللَّيلِ والنُّجوم إلَى وَصْف المَوَارد والميَاه والهَوَاجر والآلَ والحَرَابي وَالْجَنَادِب، وَمن الافْتِخَار إلَى اقْتِصَاصِ مَآثِر الأسْلافِ، وَمن الاسْتِكانَةِ والخُضُوع إلَى الاستْعَتاب والاعْتِذَار، وَمن الإباء والاعْتيَاص إلَى الإجابَةِ والتَّسَمُّحِ؛ بألْطَفِ تَخَلُّصٍ وأحْسَنِ حكَايَةٍ بِلَا انفصالٍ للمَعْنَى الثَّاني عَمَّا قَبلَهُ، بل يكونُ مُتَّصِلًا بِهِ ومُمْتَزجًا معهُ، فَإذا استَقْصَى المَعْنى وأحَاطَ بالمراد الَّذِي إلَيْهِ يَسُوق القَوْلَ بأيْسَرِ وَصْفٍ وأخَفِّ لَفْظٍ لمَ يَحْتَجْ إلَى تطويلهِ وتكريرهِ

تَفَاضُل الأشْعَار

والشِّعرُ على تَحْصيل جِنْسِهِ، ومَعْرفةِ اسمِهِ؛ مُتَشابهُ الجُمْلة، مُتَفَاوتُ التَّفْصِيل، مختلفٌ كاختلاف النَّاس فِي صُوَرِهم وأصْوَاتهم وعُقولِهِم وحُظُوظهم وشَمَائِلِهم وأخْلاقِهم، فهم مُتَفاضِلُون فِي هَذِه المَعَاني، وَكَذَلِكَ الأشْعَارُ هِيَ متفاضِلَةٌ فِي الحُسْنِ على تَسَاويهَا فِي الجِنْسِ ومواقِعُها من اخْتِيَار النَّاس إيَّاهَا كَمواقِع الصُّور الحَسَنة عِنْدهم واختيارهم لما يَسْتحسِنونه مِنْهَا، ولِكُلِّ اختيارٌ يُؤثِرُهُ، وهَوَى يَتْبعُهُ، وبِغْيَةٌ لَا يَسْتبدِلُ بهَا، وَلَا يُؤْثِرُ عَلَيْهَا

الألفاظُ والمعاني

فمِنَ الأشْعارِ أشْعارٌ مُحْكَمةٌ مُتْقَنةٌ، أنيقَةُ الألفَاظِ، حكيمةُ الْمعَانِي، عَجيبةُ التأليفِ، إذا نُقِضَتْ وجُعِلَتْ نَثْرًا لم تَبْطُلْ جَوْدةُ مَعَانيها، وَلم تَفْقُدْ جَزالةَ ألفاظِهَا

وَمِنْهَا أشعارٌ مُمَوَّهةٌ مُزَخْرفَةٍ عَذْبة، تَرُوقُ الأسْمَاعَ والأفْهامَ إذا مَرَّتْ صَفْحًا، فَإذا حُصِّلَتْ وانتُقِدَتْ بُهْرِجَتْ مَعَانِيهَا، وزُيِّفَتْ ألفاظُهَا، ومُجَّتْ حَلاوتُها، وَلم يَصْلُحْ نَقْضُها لبناءٍ يُسْتَأنَفُ مِنْهُ؛ فبعضُها كالقُصُورِ المُشَيَّدة والأبْنيةِ الوَثِيقةِ الباقيةِ على مَرِّ الدُّهور، وبعضُهَا كالخيامِ المُوَتَّدة الَّتِي تُزَعزِعُها الرِّياحُ، وتُوهِيها الأمطارُ، ويُسْرِعُ إِلَيْهَا البلَى، ويُخْشَى عَلَيْهَا التَّقَوُّض

وللمعاني ألفاظٌ تُشَاكِلُها فتَحْسُنُ فِيهَا وتَقْبُحُ فِي غَيرهَا، فَهِيَ كالمَعْرضِ لِلْجَارِيَةِ الحَسْنَاءِ الَّتِي تَزْداد حُسْنًا فِي بعض الْمعَارض دون بعض

فَكَمْ من مَعْنًى حَسَنٍ قد شِينَ بمعرضهِ الَّذِي أُبْرِزَ فِيهِ

وكَمْ من مَعْرضٍ حَسَنٍ قد ابْتُذِلَ على مَعْنًى قَبِيحٍ أُلْبِسَهُ

وكَمْ من صَارم عَضْبٍ[8] قد انتضَاهُ مَنْ وَدَدْتَ لَو أنَّهُ أمْضَاهُ، فَهَزَّه، ثمَّ لم يَضْرِبْ بِهِ

وكَمْ من جَوْهرةٍ نَفِيسَةٍ قد شِينَتْ بِقَرينَةٍ لَهَا بَعيدةٍ مِنْهَا، وأفْرِدَتْ عَن أخَواتها المُشَاكلاتِ لَهَا

وكَمْ من زائفٍ وبَهْرجٍ قد نَفَقا على نُقَّادهما، وَمن جَيِّدٍ نافقٍ[9] قد بُهْرِجَ عِنْد البَصير بِنَقْدِهِ فَنَفَاهُ سَهْوًا

وكَمْ من زُبَر [10] للمعاني فِي حَشْو الْأَشْعَار لَا يَحْسُنُ أَن يُطَبِّعها غير العُلَماءِ بهَا والصياقلةِ للسُّيوف المَطْبُوعة مِنْهَا

وكَمْ من حكمةٍ غَريبةٍ قد ازْدُرِيَتْ لرثَاثَةِ كِسْوتها، وَلَو جُلِيَتْ فِي غير لباسها ذَلِك لكَثُر المُشِيرونَ إِلَيْهَا

وكَمْ من سقيمٍ من السَّعَر [11] قد يَئِسَ طَبيبُهُ من برئه عُولج سَقَمُهُ فَعَاوَدَتْهُ سَلامتهُ

وكَمْ من صَحيحٍ جُنِيَ عَلَيْهِ فأرْدَاهُ حَيْنُهُ[12]

أشْعَارُ المُوَلَّدين

وستَعْثُرُ فِي أشْعار المُوَلَّدين بعجائبَ استفادُوهَا مِمَّن تقدَّمهم، ولَطُفُوا فِي تَنَاوُلِ أصُولها مِنْهُم، وَلَبَّسُوها على من بَعْدهم، وتكَثَّروا بإبداعها، فَسَلَّمتْ لَهُم عِنْد ادِّعائها للَطِيفِ سِحْرهم فِيهَا، وزَخْرفَتِهم لمعَانيها

والمِحْنَةُ على شُعَراءِ زَمَانِنَا فِي أشْعارهم أشَدُّ مِنْهَا على مَن كانَ قبلَهُمْ؛ لأنَّهم قد سُبِقوا إلَى كلِّ مَعْنًى بَديع، ولَفْظٍ فَصِيحٍ، وحيلةٍ لَطيفةٍ، وخَلابَةٍ ساحِرةٍ فَإنْ أتَوْا بِمَا يَقْصُر عَن مَعَاني أولَئِكَ، وَلَا يُرْبي عَلَيْهَا؛ لم يُتَلَقَّ بالقَبُول، وكَانَ كالمُطَّرَحِ المَمْلُولِ

ومَعَ هَذَا، فإنَّ مَنْ كانَ قَبْلنا فِي الجاهِلِيَّة الجَهْلاءِ وَفِي صَدْر الإسلامِ من الشُّعَراء كَانُوا يؤسِّسُون أشعَارَهُمْ فِي المَعَاني الَّتِي رَكَّبُوها عَلَى القَصْد للصِّدْق فِيهَا مَدِيحًا وهِجَاءً، وافتخَارًا ووَصفًا، وتَرْغيبًا وتَرْهيبًا إلّا مَا قد احْتُمِل الكَذبُ فِيهِ فِي حُكْم الشِّعْر من الإغراق فِي الوَصْف، والإفراط فِي التَّشْبيه وَكَانَ مجرَى مَا يُوردونه مِنْهُ مجْرى القَصص الحَقِّ، والمخاطبات بالصِّدْق، فَيُحابُون بِمَا يُثَابون، أو يُثَابون بِمَا يُحَابون

والشُّعَراءُ فِي عَصْرنا إنَّما يُثَابونَ على مَا يُسْتَحْسَنُ من لَطِيفِ مَا يُورِدُونَهُ من أشْعَارهم، وبديع مَا يُغْربونَهُ من معانيهم، وبَليغ مَا يَنْظِمونَهُ من ألفاظهم، ومُضْحِكِ مَا يوردونَهُ من نوادرهم، وأنيقِ مَا يَنْسِجُونَهُ من وَشْي قَوْلهم دون حَقَائِق مَا يَشْتمِلُ عَلَيْهِ من المَدْحِ والهجاءِ وسَائرِ الفُنُون الَّتِي يُصَرِّفون القَوْلَ فِيها

فَإذا كَانَ المديحُ ناقِصًا عَن الصِّفة الَّتِي ذكرنَاها، كانَ سَببًا لحرمَانِ قائلهِ والمُتَوسِّل بِهِ

وإذا كَانَ الهجاءُ كَذَلِك أيْضًا كانَ سببًا لاستهانة المَهْجُوِّ بِهِ، وأمْنِهِ من سَيْرهِ، وَروَايَة النَّاس لَهُ، وإذَاعَتِهم إيَّاهُ، وتَفَكُّههِمْ بنوادره؛ لَا سِيَّما وأشْعَارُهُمْ مُتَكَلَّفَةٌ غيرُ صَادِرةٍ عَن طَبْعٍ صَحِيح كأشْعَارِ

العَرَب التِي سَبِيلهم فِي مَنْظومِهَا سَبيلهم فِي مَنْثور كَلاَمِهم الذِي لاَ مَشَقَة عَليْهِم فِيهِ

فَيَنبغي للشاعِر فِي عَصْرنا أَنْ لاَ يُظْهِرَ شِعْرَهُ إلَّا بعد ثِقَتِهِ بجَوْدَتهِ وحُسْنِه وسَلامتهِ مِن العُيوب الَّتِي نُبِّهَ عَلَيْهَا، وأمِرَ بالتَّحرُّز مِنْهَا، ونُهِيَ عَن استعمَال نَظَائرها وَلاَ يَضَعُ فِي نَفْسِهِ أنّ الشِّعْرَ موضِعُ اضطرارٍ، وأَنَّهُ يَسْلُك سَبِيلَ مَن كَانَ قبلَهُ، ويحتجُّ بالأبيات الَّتِي عِيبَتْ على قَائِلِهَا، فَلَيْسَ يُقْتَدى بالمُسِيء، وإنَّما الاِقْتِدَاء بالمُحْسِنِ، وكُلُّ واثقٍ فِيهِ حَجِلٌ[13] إلاّ الْقَلِيل

وَلَا يُغِير على مَعَاني الشُّعراءِ فيودِعُها شِعرَهُ، ويخرجُها فِي أوْزانٍ مخالفةٍ لأوْزانِ الأشْعار الَّتِي يَتَناولُ مِنْهَا مَا يَتَنَاول، ويتوهَّمُ أنَّ تَغْييرهُ للألفاظ والأوزانِ مِمَّا يَسْتُر سَرقَتَهُ أو يُوجبُ لَهُ فَضِيلةً، بل يُديم النَّظَرَ فِي الأَشْعَار الَّتِي قد اخترنَاهَا لتَلْصَقِ مَعَانِيهَا بفَهْمِهِ، وتَرْسَخَ أُصُولها فِي قَلْبِهِ، وتَصِيرَ موادَّ لطَبْعِهِ، ويَذُوبَ لِسَانُهُ بألفَاظِها فإذا جاشَ فِكرُهُ بالشِّعر أدَّى إليْهِ نتائجَ مَا استفاده مما نَظَر فِيهِ من تلك الأشْعار، فكانَتْ تِلْكَ النَّتِيجةُ كسبيكَةٍ مُفْرَغَةٍ من جَميع الأَصْنَافِ الَّتِي تُخْرجُها المَعَادنِ، وكما قد اغترَفَ من وادٍ قَدْ مَدَّتْهُ سيولٌ جَاريَةٌ من شعَابٍ مُخْتَلِفَةٍ، وكَطِيبٍ تَرَكَّبَ عَن أخلاطٍ من الطِّيب كثيرةٍ فَيَستْغربُ عِيانُه، ويَغْمُضُ مُسْتَنْبطَنُهُ ويذهبُ فِي ذَلِك إلى مَا يُحْكَى عَن خَالدِ بن عبد الله القَسْريّ[14] فَإنَّهُ قَالَ: حَفَّظَنِي أبي أَلْفَ خُطبَةٍ، ثمَّ قَالَ لي: تنَاسَهَا، فتناسيْتُهَا، فَلم أُرِدْ بَعْدُ شَيْئًا من الْكَلَام إلّا سَهُلَ عليَّ فَكَانَ حِفْظُهُ لتِلْكِ الخُطَب رياضَةً لفَهْمِهِ، وتَهْذيبًا لطَبْعِهِ وشحذًا لذهنِهِ، ومادَّةً لفصاحَتهِ، وسببًا لبلاغَتهِ ولِسَنهِ وخَطَابتهِ

الأوْصَاف والتَّشْبيهات والحِكَمُ عِنْد الْعَرَب

واعْلَمْ أنَّ العَرَب أودَعَتْ أشعَارَهَا من الأوصَافِ والتَّشْبيهاتِ والحِكَم مَا أحاطَتْ بِهِ مَعْرفتها، وَأدْرَكَهُ عِيانُها، ومَرَّتْ بِهِ تَجَاربُها، وهم أهْلُ وَبَرٍ، صُحُونهم البَوَادي، وسُقوفهم السَّماءُ، فليسَتْ تَعْدُو أوْصَافُهُم مَا رَأوْهُ منهُمَا وَفِيهِمَا، وَفِي كلِّ واحدةٍ مِنْهُمَا فِي فُصُول الزَّمان على اختلافِهَا من شِتَاءٍ، ورَبيعٍ، وصَيْفٍ، وخَرِيفٍ، من ماءٍ، وهَوَاءٍ، ونارٍ، وجَبَلٍ، ونَبَاتٍ، وحَيَوانٍ، وجَمَادٍ، ونَاطقٍ،

وصَامِتٍ، ومُتَحرِّكٍ، وسَاكنٍ، وكل مُتَوَلِدٍ من وَقْتِ نَشوئه، وَفِي حَالِ نُمُوِّه إِلى حَال النِّهاية، فَضَمَّنَتْ أشعَارَها من التَّشْبيهاتِ مَا أدركَهُ من ذَلِك عِيَانُهَا وحِسُّها إِلَى مَا فِي طَبَائعها وأنْفُسِها من مَحْمود الأخْلاق ومَذْمومها فِي رَخَائها وشِدِّتها، ورضَاها وغَضَبها، وفَرَحِها وغَمِّها، وأمنْها وخَوفِها، وصِحَّتها وسَقمِهَا، والحالات المُتَصرِّفَة فِي خَلْقِها وخُلقِها من حَال الطُّفولة إِلَى حَالِ الهَرَم، وَفِي حَالِ الْحَيَاة إِلَى حَالِ المَوْت، فَشَبَّهَتِ الشَّيءَ بمثلِهِ تَشْبيهًا صَادِقًا على مَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ فِي مَعَانِيهَا الَّتِي أرادَتْها فإِذَا تأَمَّلْتَ أَشْعارَهَا، وفَتَّشْتَ جَمِيع تَشْبِيهاتها وَجَدْتَها على ضُروبٍ مُخْتَلفةٍ تَتَدرَّجُ أنواعُهَا، فبعضُها أحسَنُ من بَعْض، وبَعْضُها أَلْطَفُ من بَعْض

فأحْسَنُ التَّشبيهات مَا إِذا عُكِسَ لم يَنْتَقِضْ، بل يكونُ كلُّ مُشبَهٍ بصاحبهِ مثلَ صَاحِبهِ، وَيكون صاحِبُه مثلَهُ مُشَبَّهًا بِهِ صُورةً ومَعْنًى

ورُبَّمَا أَشْبَهَ الشَّيءُ الشَّيءَ صُورةً وخَالَفَهُ مَعْنًى، ورُبَّمَا أَشبَهَهُ مَعْنًى وخَالَفَهُ صُورةً، ورُبَّما قارَبَهُ ودانَاه، أَو شامَهُ[15] وأَشْبَهَهُ مَجَازًا لَا حقِيقةً

فإِذا اتَّفَقَ لَك فِي أَشْعَارِ العَرَب الَّتِي يُحْتَّجُ بهَا تَشْبيهٌ لَا تَتَلَقَّاه بقَبُولٍ، أَو حكايةٌ تَسْتَغْرِبُهَا؛ فابْحَثْ عَنهُ، ونَقِّرْ عَن معنَاه فإِنَّك لَا تَعْدم أنْ تَجِدَ تَحْتَهُ خَبِيئةً إِذا أَثَرْتَهَا عَرَفْتَ فَضْلَ القَومِ بهَا، وعلِمْتَ أنَّهم أَرَقُّ طبعًا مِنْ أنْ يَلْفِظوا بكلامٍ لَا مَعْنى تحتهُ

ورُبَّما خَفِيَ عَليْكَ مَذْهَبُهم فِي سَنَنٍ يَسْتَعملُونَهَا بَينهم فِي حَالاتٍ يصفُونَهَا فِي أَشْعارِهم فَلَا يُمكِنُك استنباطُ مَا تحتَ حكايَاتِهِمْ، وَلَا يُفْهَم مثلُهَا إلاَّ سَمَاعًا، فَإِذا وقَفْتَ على مَا أَرَادُوهُ لَطُفَ مَوْقِعُ مَا تَسْمَعُهُ من ذَلِك عِنْد فَهْمَكَ

والكَلامُ الَّذِي لَا مَعْنى لَهُ كالجَسَد الَّذِي لَا رُوحَ فِيهِ كَمَا قَالَ بعضُ الحُكماءِ: للكلام جَسَدٌ ورُوحٌ؛ فجسَدُهُ النُّطْقُ، وَرُوحُه مَعْنَاه!

فأمَّا مَا وَصَفَتْهُ العَرَبُ، وشَبَّهَتْ بعضَهُ ببعضٍ مِمَّا أدْرَكَهُ عِيانُهَا؛ فكثيرٌ، لَا يُحْصَرُ عَدَدُهُ وأنواعه كَثْرَةً

وأمَّا مَا وَجَدَتْهُ فِي أخلاقِهَا، وتَمَدَّحَتْ بِهِ، ومدَحَتْ بِهِ سواهَا، وذَمَّتْ مَن كَانَ على ضِدِّ حَالِها فِيهِ؛ فخِلالٌ مَشْهورةٌ كَثِيرَة:

مِنْهَا فِي الخَلْق: الجَمَالُ والبَسْطةُ[16]

وَمِنْهَا فِي الخُلُق: السَّخَاءُ، والشجَاعَةُ، والحِلْمُ، والحَزْمُ، والعَزْمُ، والوفَاءُ، والعَفَافُ، والبِرُّ، والعَقْلُ، والأمانةُ، والقَنَاعَةُ، والغَيْرةُ، والصِّدقُ، والصَّبْرُ، والوَرَعُ، والشُّكرُ، والمداراةُ، والعَفْوُ، والعَدْلُ، والإِحسَانُ، وصِلَةُ الرَّحِم، وكَتْمُ السِّر، والمواناةُ، وأصالَةُ الرأي، والأنَفَةُ، والدَّهاءُ، وعُلُوُّ الهِمَّة، والتواضُعُ، والبَيَانُ، والبِشْرُ، والجَلَدُ، والتَّجارِبُ، والنَّقْضُ والإِبرامُ[17]

وَمَا يتفرَّعُ من هَذِه الخِلالِ التِي ذكَرْنَاهَا من قِرَى الأضْيَافِ، وإعْطاءِ العُفَاة، وحَمْلِ المَغَارم، وقَمْعِ الأعْداءِ، وكَظْم الغَيْظ، وفَهمِ الأمور، ورِعَايةِ العَهْدِ، والفِكْرَةِ فِي العوَاقبِ، والجِدِّ والتَّشْمير، وقَمْعِ الشَّهواتِ، والإيْثَار على النَّفْسِ، وحِفْظ الوَدَائع، والمُجَازاةِ، وَوَضْعِ الأشْيَاءِ موَاضعهَا، والذَّبِّ عَن الحَريم، واجتلاب المحَبَّةِ، والتَّنزهِ عَن الكَذِبِ، واطِّراح الحِرْصِ، وادِّخارِ المَحَامِدِ والأجرِ، والاحترازِ من العَدُوِّ، وسيادةِ العَشِيرة، واجتنَابِ الحَسَدِ، والنكَايَةِ فِي الأعداءِ، وبُلوغ الغَايَات، والاستِكْثارِ من الصِّدْق، والْقِيَام بالحُجَّةِ، وكبْتِ الحُسَّادِ، والإسْلافِ فِي الخَير، واستدَامَةِ النِّعمة، وإصْلاحَ كَلِّ فاسدٍ، واعتقادِ المِنَنِ، واستعْبَادِ الأحْرارِ بهَا، وإينَاسِ النَّافِرِ، والإقْدامِ على بَصِيرةٍ، وحِفْظِ الجَار

وأضْدَادُ هَذِه الخِلالِ: البُخْلُ، والجُبْنُ، والطَّيْشُ، والجَهْلُ، والغَدْرُ، والاغْتِرَارُ، والفَشَلُ، والفُجورُ، والعُقُوقُ، والخِيَانةُ، والحِرْصُ، والمهانَةُ، والكذبُ، والهَلَعُ، وسُوءُ الخُلُقِ، ولؤمُ الظَّفَرِ، والجَوْرُ، والإسَاءةُ، وقَطِيعةُ الرَّحم، والنَّميمَةُ، والخلافُ، والدَّناءَةُ، والغَفْلَةُ، والحَسَدُ، والبَغْيُ، والكِبْرُ، والعُبوسُ، والإضَاعَةُ، والْقُبْحُ، والدَّمَامَةُ، والقَمَاءةُ، والاستحلالُ، والخَوَرُ[18]، والعَجْزُ، والعِيُّ[19]

ولتلك الْخِصَال المَحْمودةِ حَالاتٌ تُؤَكِّدُهَا، وتُضَاعِفُ حُسْنَها، وتَزِيدُ فِي جَلالَةِ المُتَمسِّكِ بهَا، كَمَا أنَّ لأضْدَادِهَا أيْضاً حالاتٌ تَزيدُ فِي الحَطِّ مِمَّن وُسِمَ بشَيء مِنْهَا، ونُسِبَ إلى استِشْعَار مَذْمُومِهَا، والتَّمَسُّك بفاضِحِهَا؛ كالجُود فِي حَال العُسْر، موقعه فوق موقعه في حال الجِدَة، وَفِي حَال الصَّحْوِ أحْمَدُ مِنْهُ فِي حَال السُّكر، كَمَا أنَّ البُخْلَ من الوَاجد القَادرِ أشْنَعُ مِنْهُ من المُضْطَرِّ العَاجِز، والعَفْوُ فِي حَال القُدرةِ أجَلُّ مَوْقِعًا مِنْهُ في حَالِ العَجْز، والشَّجاعَةُ فِي حَال مُبارَزَةِ الأقْران أحْمَدُ مِنْهَا فِي حَال الإحراجِ وَوُقوعِ الضَّرورة، والعِفَّةُ فِي حَال اعتراضِ الشَّهَوات والتَّمكُّن من الهَوَى أفْضَلُ مِنْهَا فِي حَال فُقْدَانِ اللَّذَّاتِ واليَأسِ من نَيْلها، والقَنَاعَةُ فِي حَال تَبَرُّج الدُّنْيَا ومطامِعِها أحْسَنُ مِنْهَا فِي حَال اليَأسِ وانقطاعِ الرَّجَاء مِنْهَا

وعَلى هَذَا التَّمثيلِ، جَميعُ الخِصَال الَّتِي ذَكَرْناهَا، فاستَعْمَلَتِ العربُ هَذِه الخِلال وأضْدادَها، ووَصَفَتْ بهَا فِي حَالَي المَدْح والهِجَاءِ، مَعَ وَصْفِ مَا يُسْتَعدُّ بِهِ لَهَا ويُتَهَيَّأ لاستعمَالهِ فِيهَا، وشَعَّبَتْ مِنْهَا فُنُونًا من القَوْل، وضروبًا من الأمْثال، وصُنُوفًا من التَّشْبيهات؛ ستجدها- على تفنُّنِها- واختلافِ وجوهِها- في الاختيارِ الذي جمعناه

عِيَارُ الشِّعْر

وعِيَارُ الشّعْر أَن يُورَدَ على الفَهْم الثَّاقب؛ فَمَا قَبِلَهُ واصطفَاهُ فَهُوَ وَافٍ، وَمَا مَجَّهُ[20] ونَفَاهُ فَهُوَ ناقِصٌ

والعِلَّةُ فِي قَبُولِ الفَهْمِ النَّاقِدِ للشعر الحَسَن الَّذِي يَرد عَلَيْهِ، ونَفْيهِ للقبِيح مِنْهُ، واهتزازهِ لما يَقْبَلهُ، وتَكَرُّهِهِ لما يَنْفيهِ، أَنَّ كلَّ حاسَّةٍ من حَوَاسِّ البَدَنِ إِنَّما تَقْبَلُ مَا يَتَّصِلُ بهَا مِمَّا طُبِعَتْ لَهُ إِذا كانَ وُرُودُهُ عَلَيْهَا وُرودًا لطيفًا باعتدالٍ لَا جَوْرَ فِيهِ، وبموافَقَةٍ لَا مُضَادَّةَ مَعَها

فالعينُ تألَفُ المَرْأى الحَسَن، وتَقْذَى بالمَرْأَى القَبيح الكَريه

وَالأَنْفُ يَقْبَلُ المَشَمَّ الطَّيِّبَ، ويتأَذَّى بالمُنْتِنِ الخَبِيث

والفَمُ يَلْتَذُّ بالمذاقِ الحُلْو، ويَمُجُّ البَشِعَ المُرَّ

والأذنُ تتشوَّف للصَّوتِ الخَفيض السَّاكن، وتَتَأذَّى بالجَهير الهَائل

واليَدُ تَنْعَمُ بالمَلْمَس اللَّين النَّاعم، وتتأذَّى بالخَشِن المُؤْذي

والفَهْمُ يأنَسُ من الكَلام بالعَدْلِ الصَّواب الحَقِّ، والجَائز المعْروفِ المألُوفِ، ويَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ، ويتَجلَّى لَهُ، ويستوحش من الكَلَامِ الجَائر الخَطأِ الباطِل، والمُحَالِ المجَهْول الْمُنكر، وينَفرُ منهُ، ويصدأ لَهُ

فَإِذا كانَ الكَلامُ الوَاردُ على الفَهْم مَنظومًا مُصَفًّى من كَدَر العِيِّ، مُقَوَّمًا من أَوَدِ الخَطَأ واللَّحنِ، سَالمًا من جَوْر التَّأليف، مَوْزونًا بِميزَانِ الصَّواب لفظًا ومَعْنًى وتَرْكيبًا؛ اتَّسَعَتْ طُرُقه، ولَطُفَتْ مَوَالجهُ[21]، فَقَبِلَهُ الفَهْمُ، وارتَاحَ لَهُ، وأَنِسَ بِهِ

وَإِذا وَرَدَ عَلَيْهِ على ضدِّ هَذِهِ الصِّفَة، وكانَ باطِلًا مُحَالًا مَجْهولًا؛ انسَدَّتْ طُرقُه، ونَفَاهُ، واسْتَوْحَشَ عِنْد حِسِّه بِهِ، وصَدِئَ لَهُ، وتَأَذَّى بِهِ كَتَأذِّي سَائِر الحَواسِّ بِمَا يخالِفُها على مَا شرحناه

وعلَّةُ كُلِّ حَسَنٍ مَقْبولٍ الاعْتِدالُ، كَمَا أنَّ عِلَّةَ كلِّ قبيحٍ مَنْفِيٍّ الاضْطِرابُ

والنَّفْسُ تَسْكُنُ إِلَى كلِّ مَا وافقَ هَواهَا وتَقْلَق مِمَّا يُخَالِفُهُ، وَلها أَحْوَالٌ تتَصرَّفُ بها، فَإِذا وَرَدَ عَلَيْهَا فِي حَالةٍ من حَالاتِها مَا يوافقُها اهتَزَّتْ لَهُ، وَحَدثَتْ لَهَا أَرْيَحِيَّةٌ وطَرَبٌ، وَإِذا وَرَدَ عَلَيْهَا مَا يُخَالِفُها قَلِقَتْ، واستَوْحَشَتْ

وللشِّعر المَوْزون إيقاعٌ يَطْربُ الفَهْمُ لصَوابه وَمَا يَردُ عَلَيْهِ من حُسْنِ تَركيبِهِ واعتدالِ أَجزائِهِ، فَإِذا اجتَمَع للفَهْم مَعَ صِحَّةِ وَزْن الشِّعر صِحَّةُ وَزْنِ المَعْنَى، وعُذوبةُ اللَّفظ، فَصَفَا مَسْموعُهُ ومعقُولُهُ من الكدَر[22]؛ تَمَّ قبولُهُ لَهُ، واشتمالُهُ عَلَيْهِ، وإِنْ نَقَصَ جزءٌ من أجزائِهِ الَّتِي يكمُلُ بهَا- وَهِي اعتدالُ الوَزْنِ، وصوابُ المَعْنى، وحُسْنُ الأَلْفَاظ؛ كَانَ إِنْكَارُ الفَهْم إِيَّاهُ على قَدْر نُقْصانِ أجزائِه

ومثال ذلِك الغِنَاءُ المُطْرِبُ الذِي يتضاعَفَ لَهُ طَرَبُ مُسْتَمِعِهِ المُتَفَهِّم لمعناهُ ولفْظِهِ مَعَ طيب ألحانِهِ فأمَّا المُقْتَصِرُ على طيبِ اللَّحْنِ مِنْهُ دون مَا سواهُ فَنَاقِصُ الطَّرَب

وَهَذِه حالُ الفَهْمِ فِيمَا يَرِدُ عليهِ من الشِّعر المَوْزون مَفْهومًا أَو مَجْهُولًا

وللأشعارِ الحَسَنَةِ على اختِلافِها مَواقِعُ لطيفَةٌ عِنْد الفَهْم لَا تُحدُّ كَيْفِيَّتُها، كمواقعِ الطُّعُوم المُركَّبَةِ الخَفِيَّةِ التَّركيبِ اللَّذيذةِ المَذَاقِ، وكالأرَاييح[23] الفَائحِةِ المُخْتَلِفةِ الطِّيبِ والنَّسيم، وكالنُّقوشِ المُلَوَّنَةِ التَقَاسيم والأصْبَاغ، وكالإيقاعِ المُطْرِبِ المُخْتَلِفِ التَّأْلِيف، وكالمَلامِسِ اللَّذيذةِ الشَّهية الحَسِّ، فَهِيَ تلائمهُ إِذا ورَدَتْ عَلَيْهِ؛ أَعْني: الأشعَارَ الحَسَنةَ للفَهْم، فيلتَذُّها، ويَقْبَلُها، ويرتشفُهَا كارتِشَافِ الصَّديانِ[24] للبَارِدِ الزُّلالِ، لأنَّ الْحِكْمَة غذاءُ الرُّوح؛ فأنْجَعُ الأغذية أَلْطَفُهَا وَقد قَالَ النَّبِي- صلى الله عَلَيْهِ وَسلم- : "إنَّ من الشِّعر حِكْمَةً" وَقد قيل: "مَا خَرَجَ من القَلب وَقَعَ فِي القَلْب، وَمَا خَرَجَ من اللِّسَان لم يتَعَدَّ الآذَان"

فَإِذا صَدَق وُرُودَ القَوْل نَثْرًا ونَظْمًا أبْهَج صدرَهُ

وَقَالَ بعضُ الفَلاسِفَةِ: "إنَّ للنَّفْس كلماتٍ روحانيةً من جِنْسِ ذَاتهَا" وجَعَل ذَلِك بُرْهَانًا عَلَى نَفْعِ الرُّقى ونجعِهَا فِيمَا تُسْتَعْمَلُ لَهُ

فَإِذا ورَدَ عَلَيْك الشِّعْرُ اللَّطِيفُ المعْنَى، الحُلْوُ اللَّفظِ، التَّامُّ البَيَان، المعَتدلُ الوَزْنِ؛ مَازَجَ الرُّوحَ، ولاءَمَ الفَهْمَ، وَكَانَ أَنْفَذَ من نَفْثِ السِّحر، وأخْفَى دبيبًا من الرُّقى[25]، وأَشَدَّ إطْرَابًا من الغِنَاء، فَسَلَّ السَّخائم[26]، وحَلَّل العُقَد، وسَخَّى الشَّحيحَ، وشَجَّعَ الجَبَانَ، وكانَ كالخَمْرِ فِي لُطْفِ دَبيبه وإلهائِهِ، وهَزِّهِ وَإثارَتهِ وَقد قَالَ النَّبِيُّ- صلى الله عَلَيْهِ وَسلم- : "إنّ من البَيَان لسِحْرًا"

ولِحُسْنِ الشِّعر وقَبُولِ الفَهْمِ إياهُ عِلَّة أخْرَى؛ وَهِي موافَقَتُه للْحَال الَّتِي يُعَدُّ معناهُ لَهَا كالمَدْحِ فِي حَالِ المُفَاخَرة وحُضور مَن يُكْبَتُ بإنشادِهِ من الأعْداءِ، وَمن يُسَرُّ بِهِ من الأوْلياءِ

وكالهجاءِ فِي حَال مُبَاراة المُهَاجَى، والحَطِّ مِنْهُ حَيْثُ يَنْكى فِيهِ استماعه لَهُ

وكالمَراثي فِي حَال جَزَعِ المُصَاب، وتَذَكُّرِ مَنَاقبِ المفقْود عِنْد تأْبينهِ، والتَّعْزِيةِ عَنهُ

وكالاعتذارِ والتَّنصُّلِ من الذَّنب عِنْد سَلِّ سَخِيمَةِ المَجْنِيِّ عَلَيْهِ المُعْتَذَرِ إِلَيْهِ

وكالتَّحريضِ على القِتَالِ عِنْد التِقَاء الأقْرَان وطَلَبِ المُغَالبة

وكالغَزَل والنَّسِيب عِنْد شَكْوَى العَاشق واهِتيَاجِ شوقهِ وحَنينِه إِلَى مَنْ يَهْواهُ

فَإِذا وَافَقَتْ هَذِه المَعَاني هَذِه الحَالات تَضَاعَفَ حُسْنُ مَوْقِعِها عِنْد مُسْتَمعها، وَلَا سِيَّما إِذا أُيِّدَتْ بِمَا يَجْلِبُ القُلوبَ من الصِّدق عَن ذَات النَّفس بِكَشْفِ المَعَاني المُخْتَلِجَةِ فِيهَا، والتَّصْريح بِمَا كَانَ يُكْتَمُ

مِنْهَا، والاعترافِ بالحَقَ فِي جَميعها

والشِّعْرُ هُوَ مَا إنْ عَرِيَ من مَعْنًى بَديعٍ لم يَعْرَ من حُسْنِ الدِّيبَاجَةِ، وَمَا خَالَفَ هَذَا فليسَ بِشِعْرٍ

وَمن أحْسَنِ المَعَاني والحِكَاياتِ فِي الشِّعرِ، وأشَدِّها اسِتفزازًا لمن يَسْتَمِعُهَا؛ الابتداءُ بِذِكْرِ مَا يَعْلَمُ السَّامِعُ لَهُ إلَى أيِّ مَعْنًى يُسَاق القَوْلُ فِيهِ قَبْلَ استتمامِهِ، وَقبل تَوَسُّط العِبَارَةِ عَنهُ والتَّعريضُ الخَفِيُّ الَّذِي يكونُ بخفائِهِ أبْلَغَ فِي مَعْنَاهُ من التَّصْريح الظَّاهر الّذِي لَا سِتْرَ دونَهُ، فَموْقِعُ هَذَين عِنْد الفَهْم كَمَوقعِ البُشْرَى عِنْد صَاحِبِها، لِثقَةِ الفَهْم بحلاوة مَا يَرِدُ عَلَيْهِ من مَعْنَاهُمَا

ضُروبُ التَّشْبِيهَات

والتَّشْبِيهَاتُ على ضُروبٍ مُخْتلَفَةٍ، فَمِنْهَا: تَشْبيهُ الشَّيءِ بالشَّيءِ صُورةً وهيئةً

وَمِنْهَا تَشْبِيهُهُ بِهِ مَعْنًى

ومنهَا تَشْبيهُهُ بِهِ حَرَكَة وبطئاً وسُرعَةً

ومنهَا تَشْبيهُهُ بِهِ لونًا

ومنهَا تَشْبيهُهُ بِهِ صَوتًا

وَرُبمَا امتزجَتْ هَذِه الْمعَانِي بعضُها ببعضٍ، فَإذا اتَّفَقَ فِي الشَّيءِ المُشَبَّهِ بالشَّيءِ مَعْنيان أَو ثلاثةُ مَعَانٍ من هَذِه الأوْصَاف قَوِيَ التَّشْبيهُ وتأكَّدَ الصِّدْقُ فِيهِ، وحَسُنَ الشِّعرُ بِهِ للشَّواهِد الكَثيرةِ المؤيِّدَةِ لَهُ

فَأَما تَشْبِيهُ الشيءِ بالشِّيءِ صُورَة وهيئةً فكَقَوْل امْرِئ القَيْس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا

لدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ والحشَفُ البَالي[27]

وكقولهِ:

كَأنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا

وأرْحُلِنَا الجزعُ الَّذِي لم يُثَقَّبِ[28]

وأَمَّا تَشْبيهُ الشَّيءِ بالشَّيءِ لَوْنًا وَصُورَةً فكقول امْرِئ القَيْس يَصِفُ الدِّرعَ:

وَمَشْدودَةُ السَّبكِ مَوضُونةٌ

تَضَاءَلُ فِي الطَّيِّ كالمِبْرَدِ[29]

تَفيضُ على المَرْءِ أرْدَانُهَا

كَفَيْضِ الأتيِّ على الجَدْجَدِ[30]

وأمَّا تَشْبْيهُ الشَّيءِ بالشَّيءِ صُورَةً، ولَوْنًا، وحَرَكًة، وهَيْئًةً، فكَقْولِ ذِي الرُّمة:

مَا بَالُ عَيْنِكَ منهَا الماءُ يَنْسَكِبُ

كأنَّهُ من كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ

وأمّا تشبيه الشيء بالشيء حركةً وهيئةً فكقول عنترة:

وترى الذبابَ بها يغنّي وحدَهُ

هَزِجاً كفعلِ الشّارب المترنِّم

غَرِداً يحكُّ ذراعَهُ بذراعهِ

قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأجذمِ

وأمَّا تشبيهُ الشَّيءِ بالشَّيءِ؛ معنًى لَا صُورَةً فكتشبيه الجوادِ الكَثيرِ العَطَاءِ بالبَحْر والحَيَا

وتَشْبيهِ الشُجَاعِ بالأسَدِ

وتَشْبيهِ الجَميلِ البَاهِر الحَسَن الرَّواء بالشَّمس والقَمَر

وتَشْبيهِ المَهِيبِ، الماضِي فِي الأمُور بالسَّيف

وتَشْبيهِ العَالي الهِمَّةِ بالنَّجم

وتَشْبيهِ الْحَلِيم الَّركين بالجَبَل

وتَشْبيهِ الحَيِيَّ بالبِكر

وتَشْبيهِ الَعزيز، الصَّعب المرام، بالمُتَوقِّل فِي الْجبَال، والسَّامي فِي العُلُوِّ

وتَشْبيهِ الفَائت بالحُلْم، وبأمسِ الذَّاهب

وتَشْبيهِ أضْدادِ هَذِه المَعَاني بأشْكالها عَلَى هَذَا القِيَاس؛ كاللئيم بالكَلْب والجبان بالصفرد[31] ، والطائش بالفراش، والذليل بالنَّقد وبالوتد، والقاسي بالحديد والصَّخر

وَقد فَازَ قومٌ بخلال شُهِروا بهَا من الخَيْر والشَّر، وصَارُوا أعلامًا فِيهَا، فَرُبَّما شُبِّه بهم فيكُونُونَ فِي الْمعَانِي الَّتِي احْتَووا عَلَيْهَا، وذُكِرُوا بشهْرتها نُجُومًا يُقْتَدى بهم، وأعْلامًا يُشَار إلَيْهِم؛ السموءَل فِي الْوَفَاء، وحَاتم فِي السَّخاء والأحْنَف فِي الحِلْم، وسَحْبانَ فِي البَلاغة، وقُسٍّ فِي الخَطَابة، ولقمانَ فِي الْحِكْمَة، فَهُم فِي التَّشْبِيه يُجْرَونَ مُجْرَى مَا قَدَّمنا ذِكْرَهُ من البَحْر والحَيَا[32]، وَالشَّمْس وَالْقَمَر، وَالسيف، وَيكون التَّشْبِيه بهم مَدْحًا كالتشبيه بهَا

وَكَذَلِكَ أضْدَادُ هَؤُلَاءِ؛ قومٌ يُذَمُّون فِيهَا شُهروا بِهِ يُشَبَّهُ بهم فِي حَال الذَّم كَمَا يُشَبَّه بِهؤلاء فِي حَال المَدْح، كبَاقِلٍ فِي العِيّ، وَهَبَنَّقَةَ فِي الحُمُق، والكُسَعِيِّ فِي الندامة، والمَنْزوف ضَرطًا فِي الْجُبْن

فالشَّاعِرُ الحاذِقُ يَمْزِجُ بَين هَذِهِ المَعَاني فِي التَّشْبِيهاتِ لِتَكْثُرَ شواهِدُهَا، ويتأكَّدَ حُسْنُها، ويَتَوَقَّي الاخْتِصَار على ذكر الْمعَانِي الَّتِي يُغِيرُ عَلَيْهَا دونَ الإبدَاعِ فيهَا، والتَّلْطِيفِ لَهَا لئلَّا يكونَ كالشَّيءِ المُعَادِ المَمْلُول

فَمَا كانَ من التّشَبيه صَادقًا قلتَ فِي وَصْفِهِ: كأنّه، أو قلتَ: كَكَذا

وَمَا قاربَ الصِّدق قلتَ فِيهِ: تَراهُ أو تَخَالُه أوْ يَكَادُ

فَمن التَّشبيه الصَّادق قَولُ امرِئ القَيْس:

نَظَرْتُ إِلَيْهَا والنُّجومُ كأنَّها

مَصَابيحُ رُهْبانٍ تُشَبُّ لقُفَّالِ[33]

فَشَبَّهَ النجومَ بمصابيحِ رُهْبَانٍ لفرطِ ضِيَائها وتَعهُّدِ الرُّهْبَان لمصَابيحِهْم وقيامِهِمْ عَلَيْهَا لتُزْهِرَ إلَى الصُّبْح، فكذلكَ النُّجومُ زَاهرةٌ طُولَ اللَّيلِ، وتَتَضاءَلُ للصَّبَاح كتَضَاؤلِ المَصَابيحِ لَهُ

وَقَالَ:

... تُشَبُّ لقُفَّالِ

لأنَّ أحْيَاءَ العَرَب بالبَادِية إذَا قَفَلَتْ إلَى مَوَاضِعها الَّتِي تأوي إِلَيْهَا من مَصيفٍ إلَى مَشْتًى، وَمن مَشْتًى إلَى مَرْبعٍ أوقِدَتْ لَهَا نِيرانٌ على قَدْرِ كَثْرةِ مَنَازلها وقِلَّتها ليهْتَدُوا بهَا، فَشَبَّهَ النُّجومَ ومواقِعها من السَّماءِ بتَفَرِّق تلكِ النِّيران واجتِماعِهَا فِي مكانٍ بَعْدَ مكانٍ على حَسَب مَنَازِلِ القُفَّالِ من أحْيَاءِ العَرَب، ويُهْتَدَى بالنُّجوم كمَا تَهْتدي القُفَّالُ بالنِّيران المُوقَدَةِ لَهُم

وَأما تَشْبيه الشَّيءِ بالشيءِ مَعْنًى لَا صُورَةً فكَقَولِ النَّابِغَة:

ألَمْ تَرَ أنَّ الله أعْطَاكَ سُورَةً

تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَها يَتَذَبْذَبُ

فإنَّكَ شَمْسٌ والنُّجومُ كَواكِبٌ

إذَا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنهُنَّ كوكَبُ

وكقَوْلِه أَيْضًا:

فإنَّكَ كاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكي

وإنْ خِلْتُ أنّ المُنْتَأى عَنْك واسِعُ

سننُ العَرَب وتَقَاليدُها

ونَذْكرُ الآنَ أَمْثِلَة للأشْعَارِ المُحْكمةِ الوَصْفِ، المُسْتَوفاةِ المَعَاني، السَّلِسَلةِ الألفاظِ، الحَسَنَةِ الدِّيبَاجةِ، وأمْثِلةً لأضْدَادِهَا، ونُنَبِّهُ على الخَلَلِ الواقع فِيهَا، ونَذْكُرُ الأبْيَات الَّتِي زَادَتْ قَرِيحَةُ قَائِلِيهَا فِيهَا على عُقُولِهِم، والأبْياتَ الَّتِي أغْرَقَ قائِلُوهَا فِيمَا ضَمَّنُوهَا من الْمعَانِي، والأبْيَات الَّتِي قَصَّرُوا فِيهَا عَن الغَايَاتِ الَّتِي جروا إلَيْهَا فِي الفُنُونِ الَّتِي وَصَفوها، والقَوافي القَلِقَةِ فِي مَوَاضِعها، والقَوافي المتمكنة فِي مواقعها، والألفَاظَ المُسْتَكْرَهَة النَّافِرَة الشَّائِنَة للمعَاني الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا، والمَعَاني المُسْتَرْذَلة الشَّائِنَة للألْفَاظ المَشْغُولة بهَا، والأبْيَات الرَّائِقَة سَمَاعًا الوَاهِيَة تَحْصِيلًا، والأبْيَاتِ القَبِيحَة نَسْجًا وَعبارَةً، العَجيبةِ معنًى وَحِكْمَةً وإصابةً، وأمثلةً لسَنَنِ العَرَب المستعملة بينهَا الَّتِي لَا تُفْهَم مَعَانيها إلَّا سَمَاعًا؛ كإمْسَاكِ العَرَب عَن بكاءِ قَتْلاها حَتَّى تَطْلُبَ بثأرِهَا، فَإذا أدركَتْهُ بَكَتْ حينئذٍ قَتْلاها، وَفِي هَذَا المَعْنى يَقُول الشَّاعر:

من كانَ مَسْرورًا بمقْتَلِ مَالكٍ

فَلْيأتِ نِسْوَتَنَا بَوْجهِ نَهارِ

يَجِدِ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَهُ

يَلْطمنَ أوجُهَهُنَّ بالأسْحَارِ

قد كُنَّ يَكْنُنَّ الوُجُوهَ تَسَتُّرًا

فَالْآن حِين بَرَزْنَ للنُّظّار

يَقول: من كانَ مَسْرورًا بمَقْتَل مَالِكٍ فليَسْتَدل ببُكاءِ نسَائِنا ونَدْبِهِنَّ إياهُ على أنّا قد أخذْنا بثأرِنَا، وقَتَلْنَا قاتِلَهُ

وَكَكَيِّهم، إذَا أصَابَ العُرُّ[34] والجَرَبُ، السِّلِيمَ مِنْهَا ليذهَبَ العُرُّ عَن السَّقيم، وَفِي ذَلِك يقولُ النَّابِغَةُ مُتَمثِّلًا:

لكلَّفْتَني ذنبَ امرئٍ وتركْتَهُ

كَذِي العُرِّ يُكوَى غَيرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ

وكحُكْمِهِمْ إذَا أَحَبَّ الرجلُ مِنْهُم اِمْرَأَةً وأحَبَّتْهُ فَلَمْ يَشُقّ برقُعَهَا وتشقّ هِيَ رداءهُ؛ أنَّ حُبَّهُمَا يَفْسُدُ، وَإِذا فَعَلاهُ دَامَ أَمْرُهُمَا، وَفِي ذَلِك يقولُ عَبْدُ بني الحَسْحاس:

فكَمْ قد شَقَقْنا من ردَاءٍ مُحَبَّرٍ

وَمن بُرْقُعٍ عَن طَفْلَةٍ غيرِ عَانِسِ

إِذا شُقَّ بُرْدٌ شُقَّ بالبُرْدِ مثلُهُ

دَوَالَيْكَ، حَتَّى كُلُّنا غيرُ لَابِسِ

وكتعليقِهِمُ الحَلْيَ والجَلاجِلَ[35] على السَّليم[36] ليُفِيقَ، وَفِي ذَلِك يَقُولُ النَّابغة:

يُسَهَّدَ من لَيْلِ التِّمامِ سَليمُهَا

لِحَلْيِ النِّسَاءِ فِي يَدَيْه قَعَاقِعُ[37]

وكَفَقْئِهم عَيْنَ الفَحْل إذَا بَلَغَت إبلُ أحَدِهِمْ أَلْفًا، فإِنْ زَادَتْ على أَلْفٍ فَقَؤوا العَيْنَ الأُخْرَى؛ يَقُولُونَ: إنَّ ذَلِكَ يَدْفَعُ عَنْهَا الغَارَةَ والعَيْنَ وَفِي ذَلِك يَقُولُ قَائلُهُمْ يَشْكُر رَبَّهُ على مَا وَهَب لَهُ:

وَهَبْتَها وأَنْتَ ذُو امْتِنَانِ

تُفْقَأُ فِيهَا أَعْيُنُ البُعرانِ

وَقَالَ بعضُ العَرب ممَّنْ أدرَكَ الإِسلام يذكُرُ أفعالَهُمْ:

وكانَ شُكْرُ القَوْم عِندَ المِنَنِ

كيَّ الصَّحِيحَات وفَقْأَ الأَعْيُنِ

وكَسَقْيهمُ العَاشقَ الماءَ على خَرزةٍ تُسمَّى السُّلوان فَيَسْلو، فَفِي ذَلِك يَقُول الْقَائِل:

يَا لَيْتَ أنَّ لِقَلْبِي مَنْ يُعلِّلُهُ

أَو سَاقِيًا فسَقَاهُ اليومَ سُلْوانَا

وكإيقَادِهِم خَلْفَ المُسَافِرِ الَّذِي لَا يُحِبُّون رُجُوعَهُ نَارًا، ويَقُولونَ: أَبْعَدَهُ اللهُ وأَسْحَقَهُ، وأوْقَدَ نَارًا إثْرَهُ

وَفِي ذَلِك يَقُولُ شَاعِرُهُمْ:

وذمَّةِ أقوامٍ حَمَلْتَ وَلم تَكُنْ

لتوقِدَ نَارًا إثْرَهُمْ للتَّنَدُّمِ

وكضَرْبِهِم الثَّوْرَ إذَا امتَنَعتِ البَقَرُ من المَاءِ! يَقُولُونَ: إنَّ الجنَّ تركَبُ الثيرانَ فَتَصُدُّ البَقَرَ عَن الشُّرْبِ! قَالَ الأَعْشَى:

فَإنِّي وَمَا كَلَّفتموني وربِّكم

لِيَعْلَمَ من أمْسَى أعَقَّ وأحْوَبَا[38]

لكالثَّورِ والجِنِّيُّ يركَبُ ظَهْرَهُ

وَمَا ذَنْبُهُ أنْ عافَتِ الماءَ مَشْرَبَا

وَمَا ذنْبُهُ أنْ عافَتِ الماءَ باقِرٌ

وَمَا إنْ تَعَافُ الماءَ إلَّا ليُضْرَبا

وكزَعْمهم أنّ المِقْلاتَ- وَهِي الَّتِي لَا يَبْقَى لَهَا وَلَدٌ- إذا وَطئتْ قَتيلًا شَرِيفًا بَقِيَ وَلَدُهَا، وَفِي ذَلِك يَقُولُ الْقَائِل:

تَظَلُّ مَقَاليتُ النِّسَاءِ يَطَأنَهُ

يَقُلْنَ: ألَا يُلْقَى على المَرْءِ مِيزرُ؟

وإنَّما تفعل النِّسَاء ذَلِك بالشَّريف إذَا كانَ مَقْتولًا غَدْرًا أوْ قُوَّةً

وكزَعْمِهمْ أنّ الرَّجُلَ إذا خَدَرتْ رِجْلُه فَذكر أحَبَّ النَّاس إِلَيْهِ ذَهَب عَنهُ الخَدَرُ، وَقَالَ كُثِّير:

إذَا خَدِرَتْ رِجْلي ذكَرْتُكِ أشْتَفِي

بدَعْوَاكِ من مَذْلٍ بهَا فَيَهُونُ[39]

وقَالَتِ امْرَأَة من بني أبي بَكْرِ بن كلاب:

إذا خَدِرَتْ رِجْلي ذَكَرْتُ ابنَ مُصعْبٍ

فإنْ قلتُ: عبد الله أَجْلَى فُتورَهَا

وكَحَذْفِ الصَّبيِّ مِنْهُم سِنَّهُ، إذَا سَقَطَتْ، فِي عَيْن الشَّمس، وقولهِ: أبْدلِيني بهَا أَحْسَنَ مِنْهَا، ولْيَجْرِ فِي ظُلَمِهَا إياتُكِ[40]

وزَعَمَ العَرَبُ أَن الصَّبِيَّ إذَا فَعَل ذَلِك لم تَنْبُتْ أسنانُهُ عُوجًا وَلَا ثُعْلًا[41]، وقَالَ طَرَفَةُ بن العَبَدْ فِي ذَلِك:

بدّلتْهُ الشَمْسُ من مَنْبِتهِ

بَرَدًا أبْيَضَ مَصْقُولَ الأشَرْ [42]

وكزَعْمِهِمْ أنَّ المَهْقُوعَ- وَهُوَ الفَرَسُ الَّذِي بِهِ هَقْعَةٌ؛ وَهِي دائرةٌ تكون بالفَرَس، فَيُقَال: فَرَسٌ مَهْقُوع- إِذا ركبَهُ رَجُلٌ فَعَرِقَ الفرسُ اغْتَلَمتِ[43] امرأتُهُ، وطَمَحَتْ إِلَى غير بَعْلها

وكَعقْدِهمُ السَّلَعَ والعُشَر فِي أَذناب الثِّيرانِ، وإضرْامِهِمُ النِّيرانَ فِيهَا وإصْعَادِهِم إِيَّاهَا على تِلْكَ الحَالةِ فِي جَبَلٍ؛ يَسْتَسْقون بذلك، ويَدْعُون الله، وَهَذا إِذا حَبَسَتِ السَّماءُ قَطْرَهَا

وَفي هَذَا المَعْنَى للوَرلِ الطَّائِيِّ:

لَا دَرَّ دَرُّ رجَالٍ خَابَ سَعْيُهمُ

يَسْتَمطِرُون لَدَى الأزْمات بالعُشَرِ

أجاعِلٌ أنتَ بَيْقورًا مُسَلَّعَةً

ذَرِيعةً لَك بَين اللهِ والمَطَرِ [44]

وكَعَقْدِهِمْ خَيْطًا، يُسَمُّونَهُ الرَّتَمَ، فِي غُصْنِ شَجَرةٍ أَو سَاقِهَا إِذا سَافَرَ أَحَدُهُمْ، وتَفَقُّدِ ذَلِك الخَيْط عِنْد رُجوعِ المُسافِرِ مِنْهُم، فَإِذا وَجَدهُ على حَالِهِ قَضَى بأَنَّ أَهْلَهُ لَم تَخُنْهُ، وإنْ رآهُ قد حُلَّ حكمَ بِأَنَّهَا قد خانَتْهُ، وأُنْشِدَ فِي هَذا المَعْنَى:

هَلْ يَنْفَعَنْكَ اليَوْمَ إنْ هَمَّتْ بِهَمْ

كَثْرةُ مَا تُوصِي وتَعْقَادُ الرَّتَمْ

وَفِي مَعْناهُ أَيْضًا:

خَانَتْهُ لمَّا رأتْ شَيْبًا بمفْرقِهِ

وغَرَّهُ حَلْفُها والعَقْدُ والرَّتَمُ

وقال الرَّاجزُ:

بِهِ مِنَ الهَوَى لَمَمْ

وَهمَّهُ عَقْدُ الرَّتَمْ

وكزَعْمِهِم أنَّ الرَّجُلَ إذَا أَرَادَ دُخُولَ قَريةٍ، فَخَافَ وَبَاءهَا، فوَقَفَ على بَابِهَا قَبْلَ أنْ يَدْخُلَها، فعَشَّر[45] كَمَا يَنْهِقُ، ثمَّ دَخَلَهَا؛ لَم يُصِبْهُ وَبَاؤهَا

وقَالَ عُرْوَةُ بن الوَرْدِ فِي ذَلِكَ- وكانَ خَرَجَ مَعَ أَصْحَابٍ لَهُ إِلَى خَيْبَر يَمْتَارُونَ مِنْهَا فَخَافُوا وباءهَا فَعَشَّروا، وأبَى عُروَةُ أَنْ يَفْعَلَ، فلَمَّا دَخلُوهَا، وامْتَارُوا، وانْصَرَفُوا إِلَى بلادِهِمْ؛ لم يَبْلُغُوا مكانَهُمْ إلَّا وعَامَّتُهُمْ مَرِيضٌ أوْ مَيِّتٌ إلَّا عُرْوَة، فقَالَ:

لَعَمْري لَئِن عَشَّرْتُ من خَشْيَةِ الرَّدَى

نهاق الحَمير إنَّني لجَزُوعُ[46]

وكزَعْمِهِم أنَّ من عَلَّق على نَفْسِهِ كَعْبَ أرْنَبٍ لم تَقْرَبْهُ الجِنُّ وَفِي ذَلِك يَقُول الشَّاعِرُ:

وَلَا يَنْفَعُ التَّعْشِيرُ إنْ حُمَّ واقِعٌ

وَلَا دَعْدَعٌ يُغْني وَلَا كَعْبُ أرْنَبِ[47]

قَالَ ابنُ الأعْرابي: قلتُ لزيد بن كَثْوة: أَحَقٌّ مَا يَقُولُونَ: إنَّ مَنْ عَلَّق على نَفْسِه كَعْبَ أرْنَبٍ لم تَقْرَبْهُ جِنَّان الحيِّ، وعُمَّار الدَّار؟ فَقَالَ: إي واللهِ، وشَيْطانُ الحَماطِة[48]، وغولُ القَفْر، وكلُّ الخَوَافي؛ إي وَالله، وتُطْفَأُ عَنهُ نيرانُ السَّعَالي وتَبُوخ

وكزَعْمِهِمْ إذَا أرادَتْ جِنيَّةٌ صَبيَّ قَوْم فَلم تَقْدِرْ عَلَيْهِ لما عَلَيْهِ من سِنِّ ثَعْلبٍ أَو سِنِّ هِرَّةٍ، وأشبَاهِ ذَلِك، فلمَّا رجَعَتْ إِلَى صَوَاحِبَاتِهَا قُلْنَ لَهَا فِي ذَلِك، فَقَالَت:

كانَتْ عَلَيْهِ نُفَرَه

ثَعَالبٌ وهِرَرَه

والحَيْضُ حَيْضُ السَّمُرَه

وحَيْضُ السَّمُرَة: شَيْءٌ يَسِيلُ فِي حُمْرة دَمِ الغَزَال، فَإذا يَبِسَ كانَ أسْوَدَ، فَإذا دِيفَ بالماءِ عَادَ أحْمَرَ مَا كَانَ ذَلِك يُزَايِل صِبيانَهُمْ، حِين تَلِدُ المرأةُ تَخُطُّ بِهِ وَجهَ الصَّبيِّ ورأسَهُ، ويُنْقَطُ بِهِ وَجْهُ أمِّه؛ تُسَمِّيه نُقْطَةَ الماءِ، واسْمُ هَذَا الخَطِّ الدُّوَدِمُ

فَهَذِهِ الأبْيَاتُ لَا تُفْهَمُ مَعَانيهَا إلَّا سَماعًا ورُبَّما كانَتْ لَهَا نَظَائِرُ فِي أشعْارِ المُحْدثينَ من وَصْفِ أشْيَاءَ تَعْرِضُ فِي حَالاتٍ غامِضَةٍ؛ إذَا لم تَكُن المعرِفَةُ بهَا مُتَقَدِّمةً عَسُرَ اسِتنْبَاطُ مَعَانيها، واسْتُبْرِدَ المَسْمُوعُ مِنْهَا؛ كَقَوْلِ أبي تَمَّام:

تِسْعُونَ ألفاً كآسادِ الشَّرى نَضِجَتْ

أعْمَارُهُمْ قَبْلَ نُضْجِ التِّين والعِنَبِ

وكَانَ القومُ الَّذين وَصفَهُمْ يَتَواعَدونُ الجَيْشَ الَّذِي كَانَ بإزائِهِم بالقتالِ، وأنّ مِيعادَ فَنَائِهم وَقْتُ نُضْجِ التِّين والعِنَبِ- وكَانَت مدةُ ذَلِك قريبَة فِي ذَلِك الوَقْت- فلَمَّا ظُفِرَ بهم حَكَى الطَّائيُّ قولَهُمْ على جِهَةِ التَّقريعِ والشَّماتة ولولا مَا ذَهَبَ إلَيْهِ فِي هَذَا المعنى لكانَ مَا أوردَه من أبْرَدِ الكَلام وأغَثِّهِ على أنَّ قَوْله:

نَضِجَتْ..............................

أعْمَارُهُمْ...

لَيْسَ بمُسْتَحْسَنٍ وَلَا مَقْبُولٍ

الأبياتُ المُستكرهة الألْفَاظ

فأمَّا الأبْياتُ المُسْتكرهَةُ الألْفاظِ، المُتَفَاوتةُ النَّسْج، القَبِيحَةُ العِبَارةِ الَّتِي يَجِبُ الاحْترَازُ من مِثْلها فكَقَوْلِ الأَعْشَى:

أَفِي الطَّوفِ خِفْتِ عليَّ الرَّدَى

وكَمْ من رَدٍ أهْلَهُ لم يَرِمْ

يُريدُ: لم يَرِمْ أهْلَهُ

وكقَوْلِ الرَّاعي:

فَلمَّا أتاهَا حَبْتَرٌ بسِلاحِهِ

مَضَى غَيرَ مَبْهورٍ ومُنْصُلَهُ انتضَى

يُرِيدُ: وانتضَى مُنْصُلَهُ

وكقَوْلِ عُروةَ بن أُذَينَةَ:

واسْقِ العَدُوَّ بِكَأسِهِ وَاعْلَمْ لَهُ

بالغَيْبِ أنْ قدْ كَانَ قبْلُ سَقاكَهَا

وكقَوْلِ الفَرَزْدَق:

ومَا مِثْلهُ فِي النّاسِ إلا مُمَلكَا

أبُو أمِّهِ حَيٌّ أبوهُ يُقَارِبُهْ

فهذَا من الكَلامِ الغَثِّ المُسْتَكرَهِ الغَلِق، وكذَلك مَا تَقَدَّمَهُ، فَلَا تَجْعَلَنَّ هَذَا حُجَّةً، ولْتَجْتَنِبْ مَا أشْبَهُهُ

وَالَّذِي يُحْتَمل فِيهِ بَعْضُ هَذا إذا وَرَدَ فِي الشِّعْرِ هُوَ مَا يُضْطَرُّ إلَيْهِ الشَّاعرُ عِنْد اقتِصَاصِ خَبَرٍ أَو حِكَايةِ كَلامٍ إنْ أزِيلَ عَن جِهَتِهِ لم يَجُزْ، وَلم يَكُنْ صِدْقًا، وَلَا يكون للشاعرِ مَعَهُ اختيارٌ؛ لأنَّ الكَلامَ يملِكُهُ حينَئذٍ فيحتَاجُ إلَى اتِّبَاعِهِ والانقِيادِ لَهُ فأمَّا مَا يُمَكِّن الشَّاعرُ فِيهِ من تَصْريف القَولِ وتَهذِيبِ الألْفَاظِ واختصارِهَا وتَسْهيلِ مَخَارِجِها فَلَا عذْرَ لَهُ عِنْد الإتْيَانِ بمثلِ مَا وصَفْنَاهُ من هذه الأبياتِ المُتَقَدِّمَة

وعَلى الشَّاعرِ إذا اضْطُرَّ إلَى اقْتِصَاصِ خَبَرٍ فِي شِعْرٍ دَبَّرهُ تَدْبيرًا يَسْلُسُ له مَعَهُ القَوْلُ وَيَطَّردُ فِيهِ المَعْنَى، فَيَبْني شِعْرَهُ على وَزنٍ يَحْتَمِلُ أنْ يُحْشَى بِمَا يحتاجُ إلَى اقتصاصِهِ بزيَادَةٍ من الكَلَامِ يُخلَطُ بِهِ أَو نَقْصٍ يُحْذَفُ مِنْهُ، وتكونُ الزِّيادةُ والنُّقْصَانُ يَسِيرَينِ غير مُخدجَيْنِ[49] لما يُسْتَعانُ فِيهِ بهما، وَتَكونُ الألفاظُ المَزيدةُ غَيْرَ خَارجةٍ من جِنْسِ مَا يَقْتَضِيهِ، بل تكونُ مُؤَيِّدةً لَهُ، وزائدةً فِي رَوْنقهِ وَحُسْنِهِ، كَقَوْل الأعْشَى فِيمَا اقْتَصَّهُ من خَبرِ السموءَل، فقَال:

كُنْ كالسَّمَوْءَلِ إذْ طَافَ الهُمَام بهِ

فِي جَحْفَلٍ كَزُهَاءِ اللَّيلِ جَرَّارِ

بالأبْلِق الفَرْدِ من تَيْمَاءَ مَنْزِلُهُ

حِصْنٌ حَصِينٌ وجارٌ غَيْرُ غَدَّارِ

إذْ سَامَهُ خُطَّتَيْ خَسْفٍ، فَقَالَ لَهُ:

اعْرُضْ عَليَّ كَذاَ أَسْمعهُمَا، حَارِ

فَقَالَ: غَدْرٌ وثُكْلٌ أنتَ بَينهُمَا

فَاخْتَرْ، وَمَا فيهما حَظٌّ لمُخْتَارِ

فَشَكَّ غَيْرَ طَوِيل ثمَّ قَال لَهُ:

اقتُلْ أسِيرَكَ إنِّي مانِعُ جَارِي

إنَّ لهُ خَلفَا إنْ كنتَ قاتِلهُ

وإنْ قَتَلْتَ: كَرِيمًا غير عُوَّارِ

مَالًا كَثيرًا وعِرْضًا غَيْرَ ذِي دَنَسٍ

وإخوَةً مِثْلهُ لَيسُوا بأشرارِ

جَرَوْا على أدبٍ مِنِّي فَلَا نَزَقٌ

وَلَا إذا شَمَّرَتْ حَرْبٌ بأغْمَارِ [50]

وسَوْفَ يُخْلِفُهُ إنْ كنتَ قاتِلَهُ

رَبٌّ كَرِيمٌ وبِيضٌ ذَات أطهارِ

لَا سِرُّهُنَّ لدَيَّ ضَائِعٌ مَذِقٌ

وكاتِمَاتٌ إذا استُودِعْنَ أَسْراري

فَقَالَ تَقْدِمَةً إذْ قَامَ يَقْتُلُهُ

أشْرِفْ سَمَوْءَل فانْظُرْ للدَّم الجَاري

أأقْتلُ ابْنَكَ صَبْرًا أَو تَجِيء بهَا

طَوْعًا، فأنْكَرَ هَذَا أيَّ إنكاري

فشَكَّ أوداجَهُ، والصَّدرُ فِي مَضَضٍ

عَلَيهِ مُنْطَوِيًا كاللَّذع بالنَّارِ

واخْتَارَ أدْرَاعَهُ أَنْ لَا يُسَبَّ بِهَا

وَلَمْ يَكُنْ عَهْدُهُ فِيهَا بِخَتَّارِ [51]

وقَال: لَا أشْتَري مَالًا بمَكْرُمَةٍ

فاخْتَار مَكْرُمَةَ الدُّنْيَا على العَارِ

والصَّبْرُ منه- قَدِيمًا- شيمةَ خُلقَ

وزَنْدُهُ فِي الوَفَاءِ الثَّاقِبُ الوَارِي

فانظُرْ إِلَي اسْتِوَاء هَذَا الْكَلَام، وسهولَةِ مخرجهِ، وتَمامِ مَعَانِيه، وصِدْقِ الحكايةِ فِيهِ، ووقُوع كلِّ كلمةٍ مَوْقِعَها الَّذِي أُرِيدَتْ لَهُ؛ من غير حَشْوٍ مُجْتَلَبٍ، وَلَا خَلَلٍ شَائِنٍ وتأمَّلْ لُطْفَ الأَعْشَى فِيمَا حَكَاهُ واختصَرهُ فِي قَوْلِه:

أَأَقْتلُ ابْنَكَ صَبْرًا أَو تَجِيء بهَا

....

فأضْمَرَ ضَمِيرَ الهَاءِ فِي قَوْله:

واخْتَارَ أدْرَاعَهُ أَنْ لَا يُسَبَّ بِهَا

فَتَلافَى ذَلِك الخَلَلَ بِهَذَا الشَّرح، فاستَغْنَى سَامِعُ هَذِه الأَبْيَاتِ عَن اسْتِمَاع القِصَّةِ فِيهَا لاشْتِمَالها على الخَبَرِ كُلِّهِ بأوجزِ كلامٍ، وأبلغ حكايةٍ، وأحْسَنِ تأْلِيفٍ، وألْطَفِ إيمَاءٍ

الأبيات الَّتِي أغْرَقَ قائِلُوها فِي مَعَانيها

فأمَّا الأبْيَاتُ الَّتِي أَغْرَقَ قائِلوهَا فِي مَعَانيها فكَقَوْل النَّابِغَة الجَعْديِّ:

بَلغْنَا السَّمَاءَ نَجْدَةً وَتكَرُّمًا

وإنَّا لنَرجُو فَوْقَ ذلكَ مَظهرًا

وكقَوْلِ الطِّرمَّاح:

لَو كَانَ يَخْفَى على الرَّحمنِ خافيةٌ

من خلقِهِ خَفِيَتْ عَنهُ بَنو أسدِ

قَوْمٌ أَقَامَ بدَارِ الذُّلِّ أَوَّلُهُمْ

كَمَا أَقَامَتْ عَلَيْهِ جَذْوَةُ الوَتَدِ[52]

وكَقوْلِ زُهَيْر:

لَوْ كانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمسِ من كَرَمٍ

قَوْمٌ بأوَّلِهم أَو مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

وكَقْولِ الآخر:

ضَرَبْتُهُ فِي المُلْتَقَى ضَرْبَةً

فَزَالَ عَنْ مَنْكِبِهِ الكاهِلُ

فَصَارَ مَا بينهُمَا رَهْوَةً

يَمْشِي بهَا الرَّامِحُ والنَّابِلُ

وكقَوْلِ أبي وَجْزَةَ السَّعْدي:

أَلَا عَلِّلانِي والمُعَلل أرْوَحُ

وَينْطِقُ مَا شَاءَ اللِّسانُ المُسَرَّحُ

بإجَّانَةٍ لَو أَنه خَرَّ بَازِلٌ

من البُخْتِ فيهَا ظَلَّ للشِّقِ يَسْبَحُ[53]

وكَقَوْلِ النَّابِغَة:

فإنَّك كَاللّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْركي

وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتَأى عَنْك واسِعُ

خَطَاطِيفُ حُجْنٌ فِي حِبَالٍ مَتينةٍ

تُمَدُّ بهَا أيْدٍ إليكَ نَوَازِعُ

وإنَّمَا قالَ:

... كالليلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي

....

وَلم يَقُلْ: كالصُّبْحِ؛ لأنَّهُ وَصَفَهُ فِي حَالِ سَخَطِهِ فشبَّهَهُ باللَّيل وَهَوْلِهِ، فهيَ كلمةٌ جَامِعَةٌ لمعَانٍ كثيرةٍ

ومثْلُهُ للفرَزدق:

وَقد خِفْتُ حَتَّى لَو أرَى المَوْتَ مُقْبِلًا

لِيَأخُذَني، والمَوْتُ يُكْرَهُ زائرُه

لَكَانَ مِنَ الحَجَّاجِ أهْونَ رَوْعَةً

إِذا هُوَ أغْفَى وَهُوَ سَامٍ نواظِرُهُ

فانْظُرْ إِلَى لُطْفِهِ فِي قَوْله:

....

إِذا هُوَ أغْفَى ....

ليكونَ أشَدَّ مُبَالغَةً فِي الوَصْف إِذَا وَصَفَهُ عِنْد إغفائه بالمَوْتِ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِ نَاظِرًا مُتَأمِّلًا مُتيَقِّظًا، ثمَّ نَزَّهَهُ عَن الإِغْفَاءِ، فَقَالَ:

....

................................وَهُوَ سَامٍ نواظِرُهُ

وكقَوْلِ جَرير:

وَلَو وُضِعَتْ فِقَاحُ بني نُمَيرٍ

عَلَى خَبَثِ الحَديدِ إِذًا لَذابَا[54]

إِذا غَضِبَتْ عَلَيْك بَنو تَميمٍ

حسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَقد سَلَكَ جماعةٌ من الشُّعَرَاءِ المُحْدَثينِ سَبِيلَ الأوائِلِ فِي الْمعَانِي الَّتِي أغْرَقُوا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو نواس:

وأخَفْتَ أهْلَ الشِّرك حَتَّى إنَّهُ

لتَخَافُكَ النُّطَفُ الَّتِي لم تُخْلَقِ

وَقَالَ بَكّر بن النّطاح:

لَو صَالَ من غَضَبٍ أَبُو دُلَفٍ على

بِيضِ السُّيوفِ لَذُبْنَ فِي الأغْمَادِ

الأشْعَارُ المُحكَمَةُ

قَالَ: فَمِنَ الأشْعارِ المُحْكَمةِ، المُتْقَنَةِ، المُسْتَوفَاةِ المَعَاني، الحَسَنِةِ الوَصْفِ، السَّلِسَةِ الألفَاظِ، الَّتِي قد خَرَجَتْ خُروجَ النَّثْرِ سُهولةً وانْتظِامًا، فَلَا اسْتِكْرَاهَ فِي قَوافِيها، وَلَا تَكَلُّفَ فِي مَعَانيها، وَلَا عِيَّ لأصْحَابِهَا فِيهَا، قولُ زُهَيْرٍ:

سئمت تكاليَف الحَيَاةِ وَمن يَعِشْ

ثَمانِينَ حَوْلًا، لَا أبَا لَكَ، يَسْأمِ

رأيْتُ المَنَايا خَبْطَ عَشْواءَ مَن تُصِبْ

تُمِتْهُ، ومنْ تُخْطِئ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

ومَنْ لَا يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثيرةٍ

يُضَرَّس بأنْيَابٍ، ويُوطَأ بِمَنْسِمِ

وأعْلَمُ مَا فِي اليَوْمِ والأمْسِ قَبْلَهُ

ولكِنَّني عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِي

حُسْنُ تَنَاوُل الشَّاعر
للمَعَاني الَّتِي سُبِقَ إِلَيْهَا

وإذَا تَنَاوَلَ الشَّاعِرُ المَعَانِيَ الَّتِي سُبِقَ إليهَا، فأبْرَزَهَا فِي أحْسَنَ من الكِسْوَة الَّتِي عَلَيْهَا؛ لَمْ يُعبْ، بل وَجَبَ لَهُ فَضْلُ لُطْفِهِ وإحْسَانِهِ فِيهِ، كقَوْلِ أبي نُوَاس:

وإنْ جَرَتِ الألْفَاظُ مِنَّا بِمدْحَةٍ

لغَيْرِكَ إنْسَانًا فأنْتَ الَّذِي نَعْني

أخَذَه من الأحْوص حَيْثُ يَقُول:

مَتَى مَا أقُلْ فِي آخِرِ الدَّهْر مِدْحَةً

فَمَا هِيَ إلَّا لابِن لَيْلَى المُكَرَّمِ

وكقَوْلِ دِعْبِل:

أحِبُّ الشَّيْبَ لمَّا قِيلَ ضَيْفٌ

لحُبِّي للضُّيوف النَّازلينَا

أخَذهُ من قَوْلِ الأحْوَص أيْضًا حيثَ يَقول:

فَبَانَ مِنِّي شَبَابي بَعْدَ لَذَّتِهِ

كأنَّما كانَ ضيفًا نازلًا رَحَلا

وكَقول دِعْبِل أَيْضًا:

لَا تَعْجَبي يَا سَلْمُ من رَجُلٍ

ضَحِكَ المَشِيبُ برأسِهِ فَبَكَى

أخذَهُ من قَوْلِ الحُسَين بن مُطَير:

كُلُّ يَوْمٍ بأُقْحُوَانٍ جَدِيدٍ

تَضْحَكُ الأرْضُ من بُكاءِ السَّماءِ

وَكَقولِ أبي نُواس:

تَدُورُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ

حَبَتْهَا بأنواعِ التَّصَاويرِ فارِسُ

قَرارَتُها كِسْرى وَفِي جَنَباتِهَا

مَهًا تَدرّيها بالقِسِّي الفَوارِسُ

فللخَمْرِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُها

وللمَاءِ مَا حازَتْ عليهِ القَلانِسُ

أخذه أبُو الحُسَين مُحَمَّد بن أحْمد بن يَحْيى الكَاتِب، فَقَال:

ومُدَامةٍ لا يَبْتَغي من رَبِّه

أحدٌ حَبَاهُ بهَا لَدَيْهِ مَزِيدَا

قد صُفَّ فِي كاسَاتِهَا صُوَرُ حَكَتْ

للشَّاربينَ بهَا كَواكِبَ غِيدَا

فَإذا جَرَى المِزَاجُ تَقَسَّمَتْ

ذَهَبًا ودُرًّا تَوْءَمًا وفَرِيدا

فَكأنَّهُنَّ لَبِسْنَ ذاكَ مَجَاسِدًا

وجَعَلْنَ ذَا لنحُورِهِنَّ عُقُودا

فَهَذَا من أبْدَعِ مَا قِيلَ فِي هَذَا وأحْسَنِهِ

ويَحتَاجُ من سَلكَ هَذِه السَّبيلِ إِلَى إلطَافِ الحِيلة، وتَدْقيق النَّظر فِي تنَاول المَعَاني واستعَارتها وتَلْبيسِها حتَّى تَخْفَى على نُقَّادِهَا والبُصَراءِ بهَا، ويَنْفَرد بِشُهرَتِهَا كأنَّهُ غَيْرُ مَسْبُوقٍ إِلَيْهَا؛ فيَسْتَعْمِلُ المَعَانِي المَأخُوذَةَ فِي غَيْرِ الجِنْسِ الَّذِي تَنَاولهَا مِنهُ، فَإذا وَجَدَ مَعْنًى لطيفًا فِي تَشْبيبٍ أو غَزَلٍ استَعْمَلَهُ فِي المَديح، وإنْ وَجَدَهُ فِي المَدِيح اسْتَعْمَلَهُ فِي الهِجَاءِ، وإنْ وجَدَهُ فِي وَصْفِ ناقَةٍ أو فَرَسٍ اسْتَعْمَلَهُ فِي وَصْفِ الإنْسَان، وإنْ وَجَدَهُ فِي وَصْفِ إنسانٍ اسْتَعْمَلَهُ فِي وَصْفِ بَهِيمَةٍ، فإنَّ عَكْسَ المَعَاني على اختلافِ وُجُوهِهَا غيرُ مُتَعَذِّرٍ على مَنْ أحْسَنَ عَكْسَها واستِعْمَالها فِي الأبْوَابِ الَّتِي يُحتَاجُ إِلَيْهَا

وَإنْ وَجَد المَعْنَى اللَّطيفَ فِي المَنْثُورِ من الكَلام، وَفِي الخُطَبِ والرَّسَائلِ والأمثال، فَتَناوَلَهُ وَجعله شِعْرًا؛ كانَ أَخْفَى وأحْسَنَ، ويَكُونُ ذَلِك كالصَّائِغِ الَّذِي يُذِيبُ الذَّهَبَ والفِضَّةَ المَصُوغَيْنِ، فَيعيدُ صِيَاغَتَهُمَا بأحْسَنَ مِمَّا كَانَا عليهِ، وكالصَّبَّاغِ الَّذِي يَصبَغُ الثَّوْبَ على مَا رَأى من الأصْبَاغِ الحَسَنةِ؛ فَإذا أبْرَزَ الصَّائغُ مَا صَاغَهُ فِي غَيْرِ الهَيْئَة الَّتِي عُهِدَ عَلَيْهَا، وأظْهَرَ الصَّبَّاغُ مَا صَبَغَهُ على غَيْرِ اللَّونِ الَّذِي عُهِدَ قَبْلُ، التَبَسَ الأمْرُ فِي المَصُوغِ وَفِي المصْبُوغِ على رائيهما، فَكَذَلِك المَعَاني وأَخْذُهَا واستِعْمَالُهَا فِي الأشْعَار على اختِلافِ فُنُونِ القَوْل فيها

قِيلَ للعَتَّابي: بِمَاذَا قَدرْتَ على البَلاَغة؟ فَقَال: بِحَلِّ مَعْقُودِ الكَلاَم!

فالشَعرُ رسائِل مَعْقودَةٌ، والرَّسَائل شِعْرٌ مَحلولٌ، وَإذا فَتّشْتَ أشْعَارَ الشعَراءِ كلهَا وَجَدْتَهَا مُتَنَاسِبَةَ إمَّا تَنَاسُبًا قَرِيبًا أوْ بَعيدًا، وتَجِدُها مناسِبَةً لكلامِ الخُطَبَاءِ، وخُطَبِ البُلغَاءِ، وفِقَرِ الحكماءِ

وسَنَذكرُ من ذَلِك مَا يَكونُ شَاهدًا على مَا نقُول:

من ذَلِك أنَّ عَطَاءَ بنَ أبِي صَيْفي الثَّقَفِي دَخَلَ على يَزيد بن مُعَاوية فَعَزَّاهُ عَن أبيهِ وهَنَّأهُ بالخِلافةِ، وهُوَ أوَّلُ من عَزَّى وهَنَّأ فِي مَقَام واحِدٍ، فَقَالَ: أصْبَحتَ رُزِيت خَلِيفَةَ الله، وأعْطِيتَ خِلافَةَ اللهِ؛ قَضَى مُعَاويةُ نَحْبَهُ، فيَغْفرُ اللهُ لَهُ ذَنْبَهُ، وَوَلِيتَ الرِّئاسَةَ وكُنْتُ أحَقَّ بالسِّياسَةِ، فاشْكُر اللهَ على عَظِيمِ العَطِيَّةِ، واحْتسِبْ عِنْد اللهِ جَلِيلَ الرَّزِيَّة، وأعْظَمَ اللهُ فِي مُعَاويةَ أجرَك، وأجْزَلَ على الخِلافةِ عَوْنَك

فأخَذَهُ أبُو دُلامَة فقَالَ يَرْثي المَنْصُورَ ويمْدَحُ المَهْدِيَّ:

عَيْنَايَ؛ واحِدةٌ تُرىَ مَسْرورةً

بإمَامِهَا جَذْلَى، وأخْرَى تَذْرِفُ

تَبْكي، وتَضْحَكُ تَارَةً فَيَسُوؤهَا

مَا أنْكَرَتْ، ويَسُرُّهَا مَا تَعْرِفُ

فَيَسُوؤهَا مَوْتُ الخَلِيفَة أوَّلًا

ويَسُرُّهَا أنْ قَامَ هَذَا الأرْأفُ

مَا إنْ سَمِعْتُ وَلَا رَأيْتُ كَمَا أَرَى

شَعْرًا أرَجِّلُهُ، وآخَرَ أنْتِفُ

هَلَكَ الخَلِيفَةُ يَالَأمَّةِ أحْمدٍ

وأتاكُمُ من بَعْدِهِ مَنْ يَخْلِفُ

أهْدَى لهذَا اللهُ فَضْلَ خِلافَةٍ

ولذَاكَ جَنَّاتُ النَّعِيمِ وَزُخْرفُ

فابْكُوا لمَصْرَعِ خَيْرِكُمْ وَوَلِيِّكُم

واسْتَبْشِرُوا بِقيَام ذا وتَشَرَّفوا

فأخَذَهُ أَبُو الشِّيصِ، فَقَالَ يَرْثي الرَّشيدَ، ويمدَحُ المَخْلوعَ:

جَرَتْ جَوارٍ بالسَّعْدِ والنَّحْسِ

فَنَحْنُ فِي وَحْشَةٍ وَفِي أنْسِ

فالعَيْنُ تَبْكي، والسِّنُّ ضَاحِكَةٌ

فَنَحْنُ فِي مَأتَمٍ وَفي عُرْسِ

يُضْحِكُنَا القَائِمُ الأمِينُ ويُبْــ

ــــكِينا وَفَاةُ الإمَامِ بالأمْسِ

بَدْرَانِ، هَذَا أمْسَى بِبَغْداد فِيالــ

ــخُلْدِ وهَذَا بِطُوسَ فِي رَمْسِ

وَلما مَاتَ الإسكندرُ نَدَبَهُ أرسطَاطَالِيسُ، فَقَالَ: طَالمَا كانَ هَذَا الشَّخْصُ واعِظًا بَلِيغًا، وَمَا وَعَظَ بِكَلامِهِ موعِظَةً قَطّ أبْلَغَ من وَعْظَتِهِ بسُكوتِه

فأخَذَهُ صَالح بن عبد القُدُّوس، فَقَالَ:

ويُنَادُونَهُ وقَدْ صُمَّ عَنْهُمْ

ثمَّ قَالُوا، وللنِّسَاءِ نَحِيبُ

مَا الَّذِي عاقَ أنْ تَرُدَّ جَوَابًا

أَيُّهَا المِقْوَلُ الألَدُّ الخصيبُ

إنْ تَكُنْ لَا تُطِيقُ رَجْعَ جوابٍ

فَبِمَا قَدْ تُرَى وأنْتَ خَطِيبُ

ذو عِظاتٍ وَمَا وَعَظْتَ بِشَيءٍ

مِثْل وَعْظِ السُّكوت إذْ لَا تُجِيبُ

فاخْتصَرَهُ أَبُو العَتَاهِيةِ فِي بَيْتٍ، فَقَالَ:

وكانَتْ فِي حَيَاتِكَ لي عِظَاتٌ

فأنْتَ اليَوْمَ أوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا

ورُبَّما أحْسَنَ الشَّاعِرُ فِي مَعْنًى يُبْدِعُهُ، فيكرِّرُهُ فِي شِعْرِهِ على عبارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وإذَا انقَلَبَتِ الحَالَةُ الّتِي يَصِفُ فِيهَا مَا يَصِفُ قَلَبَ ذَلِكَ المَعْنَى، وَلم يَخْرُجْ عَن حَدِّ الإصابَة فِيهِ، كَمَا قَالَ عبد الصمَّد بن المُعَذَّل فِي مدح سَعِيد بن سَلْم البَاهِلِيِّ:

ألَا قُلْ لسَاري اللَّيْلِ لَا تَخْشَ ضَلَّةً

سَعِيدُ بنُ سَلْمٍ ضَوْءُ كلِّ بِلَادِ

فلمَّا مَاتَ رَثَاهُ، فقَالَ:

يَا سَارِيًا حَيَّرَهُ ضلالُهُ

ضَوْءُ الْبِلَاد قَدْ خَبَا ذُبالُهُ

وكما قَالَ عليُّ بنُ الجَهْم:

قَالوا احْتُبِسْتَ فَقُلتُ لَيسَ بضَائري

حَبْسي وأيُّ مُهَنَّدٍ لَا يُغْمَدُ؟!

أوَمَا رأيتَ اللَّيْثَ يألَفُ غِيلهُ

كِبْرًا، وأقْبَاشُ السِّباعِ تَرَدَّدُ[55]

فلمَّا نُصِبَ للنَّاسِ، وعُرِّيَ بالشَّاذِياخِ[56]؛ قَالَ:

نَصَبُوا بحَمْدِ الله مِلءَ عُيُونِهِمْ

حُسْنًا، ومِلءَ صُدُورِهِمْ تَبجِيلا

مَا عَابَهُ أنْ بُزَّ عنهُ ثِيابُهُ

فالسَّيفُ أهْوَلُ مَا يُرَى مسلولَا[57]

فَتَشبَّهَ فِي حَالِ حَبْسِه بالسَّيفِ مغْمدًا، وَفِي حَالِ تَعرِيَتِهِ وإبرازِهِ بالسَّيفِ مَسْلولًا، وبالليثِ آلفًا لغِيلِهِ تَارةً، ومُفَارقًا لغيلِهِ تَارَة

وَمِمَّا يُسْتَحْسَنُ جدًّا قَولُ عليِّ بن مُحمد بن نَصر:

لَا أظْلِمُ اللَّيلَ وَلَا أدَّعي

أنَّ نُجومَ اللَّيلِ ليسَتْ تَغُورْ

لَيلي كَمَا شاءَتْ فإنْ لم تَزُرْ

طَالَ، فَإن زارَت فَليلِي قَصِيرْ

وأخذَ هَذَا المَعْنى من قَوْلِ الرَجُلِ لمعاوية حَيْثُ سألهُ: كيفَ الزَّمانُ عليكَ؟ فَقَالَ: أنتَ الزَّمانُ؛ إذاَ صَلَحْتَ صَلَحَ الزَّمانُ، وَإذا فَسَدْتَ فَسَدَ الزَّمان

وكُلُّ مَا أوْدَعَنَاهُ هَذَا الكتابَ فأمِثلةٌ يُقَاسُ عَلَيها أشْكالُهُا، وَفِيهَا مقنعٌ لِمَنْ دَقَّ نَظَرُه، ولَطُفَ فَهْمُهُ وَلَو ذهبنَا نستَقصي كلَّ بابٍ من الأبوابِ الَّتِي أودَعناها كتابَنَا لطَالَ، وَطَالَ النَّظَرُ فِيهِ، فاسْتَشْهَدْنَا بالجُزْءِ على الكُلِ، وآثرنا الاختِصَارَ على التَطوِيلِ

الأبيات الحَسَنَةُ
الألفاظ الواهيةُ الْمعَانِي

ومنَ الأبياتِ الحَسَنَةِ الألفاظِ، المُسْتَعْذَبةِ الرَّائِقَةِ سَماعًا، الوَاهِيَةِ تَحْصِيلًا ومَعْنًى- وإنَّما يستَحْسَنُ مِنْهَا اتِّفَاقُ الحَالاتِ الَّتِي وُضِعَتْ فِيهَا، وتَذَكُّرُ اللَّذَّاتِ بمعَانيها، والعِبارَةُ عَمَّا كانَ فِي الضَّمير مِنْهَا، وحِكاياتُ مَا جَرَى من حَقَائِقِها دونَ نَسْجِ الشِّعر وجَوْدتهِ، وإحْكَامِ رَصْفِهِ وإتْقَانِ مَعْناهُ- قولُ جَميل:

فَيَا حُسْنَهَا إذْ يَغْسِلُ الدَّمْعُ كُحْلهَا

وإذْ هِيَ تُذْرِي الدَّمْعَ مِنْهَا الأنَاملُ

عَشِيَّةَ قَالَت فِي العِتَابِ: قَتَلْتَني

وقَتْلي بِمَا قَالَتْ هُنَاكَ تُحَاوِلُ

وكَقَوْلِ جَرِيرِ:

إنَّ الَّذين غَدَوْا بِلُبِّكَ غَادَرُوا

وشَلًا بِعَيْنِكَ لَا تَزَالُ مَعِينا[58]

غَيَّضْنَ من عَبَراتِهِنَّ وقُلْنَ لي:

مَاذَا لَقِيتَ من الهَوَى ولقينا؟

وكقَوْلِ الأعْشَى:

قَالَتْ هُرَيرَةُ لما جئتُ زَائِرَهَا

وَيْلي عَليْك وَوَيْلي منك يَا رَجُل

فَوَيْلي الأولى تَهَدُّدٌ، وَوَيْلِي الثانيةُ اسْتِكانَةٌ

فالمستحسن من هذه الأبيات حقائق معانيها الواقعة لأصحابها الواصفين لها دون صنعة الشِّعر وإحكامه فأما قول القائل:

ولمَّا قَضَيْنَا من مِنًى كلّ حَاجَةٍ

ومَسَّحَ بالأرْكانِ مَن هُوَ مَاسِحُ

وَشُدَّتْ على حُدْبِ المَهارَى رِحَالُنَا

وَلَا ينظُر الغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحُ

أخَذْنَا بأطرَافِ الأحَاديثِ بينَنَا

وسَالَتْ بأعْنَاقِ المَطِيِّ الأباطِحُ

فإنَّ فائدةَ هَذَا الشِّعر هُوَ اسْتِشْعَارُ قائِلهِ لفرحَةِ قُفُولِهِ إِلَى بَلَدِهِ، وسرورِهِ بالحَاجَةِ الَّتِي وَصَفَها من قَضَاءِ حَجِّهِ، وأُنْسِهِ برُفَقَائِهِ ومُحَادَثَتِهِم، وَوَصفِهِ سَيْلَ الأبَاطِحِ بأعْنَاقِ المَطِيِّ كَمَا تَسِيلُ بالمياه، فَهُوَ مَعْنًى مُسْتوفًى على قَدْرِ مُرَاد الشَّاعر

وكقول كُثَيِّر أيضًا:

أسِيئِي بِنَا أَو أحْسِنِي لَا مَلُومَةً

إلينَا وَلَا مَقْلِيَّةً إنْ تَقَلَّتِ

قَالت العُلَماءُ: لَو قالَ هَذَا البَيْتَ فِي وَصْفِ الدُّنيا لكانَ أَشْعَرَ النَّاس

الأبْياتُ الحَسَنَةُ
الْمعَانِي الواهيةُ الْأَلْفَاظ

وَمن الحِكَم العَجيبةِ، والمَعَاني الصَّحيحةِ، الرَّثَّة الكُسْوة، الَّتِي لم يُتَنَوَّقْ فِي مَعْرضِها الَّذِي أُبرِزَتْ فِيهِ، قَوْلُ القَائِل:

نُراعُ إِذا الجَنَائز قَابلَتْنَا

ونَسْكُنُ حِين تَمْضي ذَاهبَاتِ

كَرَوْعَةِ ثَلَّةٍ لِمُغَارِ ذِئبٍ

فلمَّا غَابَ عادتْ رَاتِعَاتِ[59]

وكقَوْلِ الآخَرِ:

ومَا المَرْءُ إِلَّا كالشِّهابِ وضَوْئهِ

يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

ومَا المَالُ والأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعٌ

وَلَا بُدَّ يَوْمًا أنْ تُرَدَّ الوَدَائِعُ

الأَبْيَاتُ الحَسَنةُ
الألفاظِ والمعَاني

فأمَّا المَعْنَى الصَّحِيحُ، البَارِعُ الحُسْنِ، الَّذِي أُبْرِزَ فِي أحْسَن مَعْرَضٍ، وأبْهَى كُسْوَةٍ وأرَقّ لَفْظٍ؛ فَقَوْل مُسْلِمِ بن الوَليد الأنْصَارِيِّ:

وَإنِّي وإسْمَاعِيلَ بعد فراقِهِ

لكَالغِمْدِ يَوْمَ الرَّوْعِ زَايلَهُ النَّصْلُ

فإنْ أغْشَ قَوْمًا بعدَهُ أوْ أَزُرْهُمُ

فكالوَحْشِ يُدْنيهَا من الأَنَسِ المَحْلُ

التَّشْبيهاتُ البَعِيدَة

وَمن التشبيهات البَعيدة التِي لم يَلْطفْ أصْحَابُهَا فِيهَا، وَلم يَخْرُجْ كَلاَمُهُمْ فِي العِبَارةِ عَنْهَا سَهْلَا؛ قَوْل النَّابِغة الذّبيانيِّ:

تَخْدي بِهِمْ أَدُمٌ كأنَّ رِحَالَهَا

عَلَقٌ أرِيقَ على مُتُونِ صُوَارِ [60]

وقَوْلُ خُفَافِ بن نَدْبَة:

أبْقَى لَهَا التَّعْداءُ من عَتدَاتِها

ومُتُونها كَخُيُوطَةِ الكَتَّانِ

والعَتدَاتُ: القَوَائم، أرَادَ أنَّ قَوْائمِهَا دَقَّتْ حَتى عَادَتْ كأنَّها الخُيوطُ، وأرادَ: ضُلوعَها، أَي: مُتُونَها

الأبْيَاتُ الَّتِي زَادتْ قريحة قائليها على عُقُولهمْ

وَمن الأبْيَات الَّتِي زَادَتْ قريحةُ قائليها على عُقُولهم قَوْلُ كُثيِّر:

فإنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنينَ بِرِفْقهِ

غَزَا كامِنَاتِ الوُدِّ مِنِّي فَنَالَهَا

وقَولُهُ أَيْضًا يُخَاطِبُ عبد المَلِكِ:

وما زالتْ رُقَاكَ تَسُلُّ ضِغْني

وتُخْرِجُ مِنْ مَكَامِنِهَا ضِبَابي[61]

وَيَرْقِيني لَكَ الحَاوونَ حَتَّى

أجَابَتْ حَيَّةٌ تَحت الحِجَابِ

وَقَوْلُهُ أَيْضًا:

أَلا ليتنا- يَا عَزُّ- من غَيرِ رِيبَةٍ

بَعِيرانِ نَرْعَى فِي الخَلاءِ ونعْزُبُ

كِلانَا بِهِ عُرٌّ فَمَنْ يَرَنَا يَقُلْ

على حُسْنِهَا جَرْبَاءُ تُعْدي وأجْرَبُ

نكُونُ لِذِي مَالٍ كَثيرٍ مُغَفَّلٍ

فَلَا هُوَ يَرْعَانَا وَلَا نَحْنُ نُطْلَبُ

إذَا مَا وَرَدْنَا مَنْهَلًا صَاحَ أهْلُهُ

إلَيْنَا فَلا نَنْفَكُّ نُرْمَى ونُضْرَبُ

وَدِدْتُ- وبَيْتِ اللهِ- أنَّكِ بَكْرَةٌ

هِجَانٌ وأنِّي مُصْعَبٌ ثمَّ نَهْرَبُ

فقالتْ لهُ عَزّةَ: لقد أرَدْتَ بِي الشَقَاءَ الطويلَ، وَمن المَنِيَّةِ مَا هُوَ أوطأ من هَذِه الَحَالة

وكَقوْلِ الآخر فِي زُبَيْدةَ أمِّ مُحَمَّدٍ الأَمِين:

أَزُبَيْدَةَ ابَنةَ جَعْفَرٍ

طُوبَى لِسَائِلِكِ المُثَابْ

تُعْطِينَ من رِجْلَيْكِ مَا

تُعْطِي الأكُفُّ من الرِّغَابْ[62]

وكقَوْلِ جَرير بن عَطِيَّة:

هَذَا ابنُ عَمِّي فِي دِمَشْقَ خَلِيفةً

لَو شِئْتُ سَاقَكُمُ إليَّ قِطِينَ[63]

فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا حَزْرَة؛ لم تَصْنَعْ شَيْئًا، أعَجِزْتَ أنْ تَفْخَرَ بقَوْمِكَ حَتَّى تَعَدَّيتَ إِلَى ذِكْرِ الْخُلَفَاء؟ وقالَ لَهُ عُمَر بن عبد العَزيز: جَعَلْتَني شُرطِيًّا لَكَ، أمَا لَو قُلْتَ:

....

لَو شَاءَ سَاقَكُمُ إلي قَطِينَا؛

لَسُقْتهم إِلَيْك عَن آخرِهِمْ؟!

وكَقَولِهِ:

يَا بِشْرُ حُقَّ لوَجْهِكَ التَّبشِيرُ

هَلَّا غَضِبْتَ لنَا وأنْتَ أمِيرُ

قَدْ كانَ حَقَّكَ أنْ تقولَ لِبَارِقٍ

يَا آلَ بَارِقَ فِيمَ سُبَّ جَرِيرُ؟!

فقالَ بِشْرٌ: أما وَجَد رَسُولًا غَيْرِي؟!

قَالَ: وكَقَولِ الأخْطَلِ:

أَلَا سَائِلِ الجَحَّافَ هَلْ هُوَ ثَائِرٌ

بِقَتْلَى أُصِيْبَتْ من سُلَيْمٍ وعامِرِ

فقدَّرَ أنَّهُ يُعَيِّر الجَحَّافَ بِهَذَا القَوْلِ ويُقَصِّر بهِ فيهِ، فأجْرَاهُ الجَحَّافُ مُجْرَى التَّحريض، فَفَعَل بقومِهِ مَا دَعَا الأخْطَلَ إلَى أنْ قَالَ:

لَقَدْ أَوْقَعَ الجَحَّافُ بالبِشْرِ وَقْعَةً

إِلَى اللهِ مِنْهَا المُشْتَكَى والمُعَوَّلُ

فَلَو سَكَتَ عنْ هَذَا بعد ذَلِك القَوْل الأوَّل كانَ أجْمَلَ بِهِ، ثمَّ لم يَرْضَ حَتَّى أوْعَدَ وتَهَدَّدَ عِنْد ذَلِك الخَلِيفَةَ، فَقَالَ:

فإنْ لم تُغَيِّرْهَا قُرَيشٌ بِمُلْكِهَا

يكُنْ عَن قُريشٍ مُسْتَمَازٌ ومَزْحَلُ[64]

وكَقَوْلهِ أَيْضًا:

فَلَا هَدَى الله قَيْسًا من ضَلالتها

وَلَا لعًا لبني ذَكْوانَ إذْ عَثَروا[65]

ضَجُّوا من الحَرْبِ إذْ عَضَّتْ غَوَارِبَهُمْ

وقَيْسُ عَيْلانَ مِنْ أخلاقِهَا الضَّجَرُ [66]

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْملك: لَو كانَ كَمَا زَعَمْتَ لما قُلْتَ:

لَقَدْ أوْقَعَ الجَحَّافُ بالبِشْرِ وَقْعَةً

إِلَى اللهِ مِنْهَا المُشْتَكى والمُعَوَّلُ

الأبْيَاتُ الَّتِي قَصَّرَ فِيهَا أصحابُها عَن الغايات

وَمن الأبْيات الَّتِي قَصَّر فِيهَا أَصْحَابُها عَن الغَايَات الَّتِي أُجْرُوا إِلَيْهَا، وَلم يَسُدُّوا الخَلَلَ الوَاقِعَ فِيهَا مَعْنًى ولَفْظًا؛ قَوْلُ امرئ القَيْس:

فللسَّاق أُلْهُوبٌ وللسَّوط دِرَّةٌ

وللزَّجْرِ مِنْهُ وَقْعُ أَخْرَجَ مُهْذِبِ[67]

فقيلَ لَهُ: إنَّ فَرَسًا يُحْتَاجُ إِلَى أنْ يُسْتَعَانَ عليهِ بِهَذِهِ الأشْياءِ لَغَيْرُ جَوَادٍ

وقَوْلُ المُسَيَّب بن عَلَس:

وقَدْ أتَنَاسَى الهَمَّ عِنْد احْتِضَارِهِ

بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعَرِيَّةُ مُكْدَمِ

فَسَمِعُهُ طَرَفَةُ، فقَالَ: استَنْوقَ الجَمَلُ

والصَّيْعَرِيَّةُ: من سِمَاتِ النُّوق

وقول الشَّمَّاخ:

وأعْدَدْتُ للسَّاقَيْنِ والرِّجْلِ والنَّسَا

لِجَامًا وَسَرْجًا فَوْقَ أعْوَجَ مُخْتَالِ

وإنَّما يُلْجَمُ الشِّدقان لَا السَّاقان

الأبْيَاتُ المُسْتَكْرَهَةُ الألْفاظِ، القَلِقَةُ القَوَافي

ومنَ الأبْياتِ المُسْتَكْرَهَةِ الألْفَاظِ، القَلَقَةِ القَوافِي، الرَّدِيئةِ النَّسْجِ، فَلَيْسَتْ تَسْلَمُ من عَيْبٍ يلْحَقُها فِي حَشْوِهَا أو قَوَافيها، وألْفَاظِهَا أو مَعَانيها؛ قَوْلُ أبي العِيَال الهُذَلِيِّ:

ذَكَرْتُ أخِي فَعَاوَدني

صُداعُ الرِّأس والوَصَبُ[68]

فَذكرُ "الرَّأس" مَعَ "الصُّدَاع" فَضْلٌ

وقَوْل أوْسٍ:

وَهُمْ لِمُقِلِّ المَالِ أوْلادُ عِلَّةٍ

وإنْ كَانَ مَحْضًا فِي العُمومِة مخْوِلَا

فَقَوْل: "المَال" مَعَ "مُقِل" فَضْلٌ

وكَقَوْل عبد الرَّحْمَن بن عبد الله بن كَعْب بن مَالكٍ الخَزْرجي:

قِيدَتْ فَقَدْ لانَ هَادِيهَا وحَارِكُهَا

والقَلْبُ مِنْهَا مُطَارُ القُلْبِ مَحْذُورُ

وكقْولِ الآخَر:

أَلا حَبَّذا هِنْدٌ وأرضٌ بهَا هِنْدُ

وهِنْدٌ أتَى من دُونِها النَّأيُ والبُعْدُ

فَقَوله: "النَّأي" مَعَ ذكر "البُعْد" فَضْلٌ

وكقَولِ الأعْشَى:

فَرَمَيْتُ غَفَلَة عَيْنِهِ عَن شَاتِهِ

فَأصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِها وَطِحَالِهَا

وقَوْلِهِ:

استَأثرَ الله بالوَفَاءِ وبال-

عَدْلِ وَوَلَّى المَلامَةَ الرَّجُلا

أرَادَ: الإنْسان

وقَوْلِ الحُطَيئة:

قَرَوا جَارَكَ العَيمانَ لمَّا جَفَوتَهُ

وقَلَّصَ عَن بَرْدِ الشَّراب مَشَافِرُهُ

أَرَادَ: شَفَتَيْهِ

وقولِ المُزَرِّد أخي الشَّمَّاخ:

فَمَا بَرِحَ الوِلدانُ حَتَّى رَأيْتُه

على البَكْرِ يَمْريهِ بِسَاقٍ وحَافِرِ [69]

يُرِيدُ: بِسَاقٍ وقَدمٍ

وقَوْلِ حَسَّان:

وتَكَلُّفي اليَوْمَ الطَّوِيلَ وقدْ

صَرَّتْ جَنَادِبُهُ من الظُّهرِ

أرادَ بالظُّهرِ: حَرَّ الظَّهيرة

وقَوْلِ المُتَلَمِّس:

إنْ تَسْلُكي سُبُلَ المَوْمَاةِ مُنْجِدَةً

مَا عَاشَ عَمْروٌ، وَمَا عُمِّرْتَ قَابوسُ[70]

أرَادَ: مَا عَاشَ عَمْروٌ، وَمَا عُمِّرَ قابوسُ

وقَوْلِهِ:

من القَاصِراتِ سُجُوفَ الحجا

ل لم تَرَ شمسًا وَلَا زَمْهَرِيرا[71]

أرَادَ: لم تَرَ شمسًا وَلَا قَمَرًا أَو: لم يُصبْهَا حَرٌّ وَلَا بَرْد

القَوَافي الوَاقِعَةُ فِي مَواقعها

ومنَ القَوافي الوَاقِعَة فِي مَواضِعِهَا، المُتَمَكِّنَةِ فِي مواقعها، قَوْلُ امرئ القَيْس فِي قَصيدتِه الَّتِي يقولُ فِيهَا:

وَقَدْ أغْتَدي قَبْلَ العُطَاسِ بهَيْكلٍ

شَديدِ مَشَكِّ الجَنْبِ فَعْمِ المُنْطِّقِ[72]

قَوْلُهُ:

بَعَثْنَا رَبِيئًا قَبْلَ ذلكَ مُخْمِلَا

كَذِئبِ الفَضَا يَمْشِي الضَّراءَ ويَتَّقي

فَوقَعَتْ: "يَتَّقي" مَوْقِعًا حسنًا

وكذلكَ قَوْلُ النَّابِغَة:

تَجْلُو بِقَادِمَتَيْ حَمَامَةِ أيْكَةٍ

بردًا أُسِفّ لِثَاتُهُ بالإثْمِدِ[73]

كالأُقْحَوانِ غَدَاةَ غِبِّ سَمَائِهِ

جَفَّتْ أعَاليهِ وأسْفَلُهُ نَدِي

زَعَمَ الهُمَامُ بأنَّ فاهَا باردٌ

عَذْبٌ إذَا مَا ذُقْتَهُ قُلْتَ: ازْدَدِ

زَعَمَ الهُمَامُ وَلم أذُقْهُ، أنَّهُ

يُرْوَى بِرِيقَتِهَا، من العَطَشِ، الصَّدي

فقولُهُ: "وأسْفَلُهُ نَدِي"، و"من العَطَشِ الصَّدي"؛ وقَعَا مَوْقعَيْن عَجِيبَيْنِ

وقَوْلُ زُهَيْر:

وأَعْلَمُ مَا فِي اليَوْمِ والأمْسِ قَبْلَهُ

ولكنَّني عَنْ عِلمِ مَا فِي غَدٍ عَمِي

فقَولُهُ: "عَمِي" واقِعَةٌ مَوْقِعًا حَسَنًا

وكَقَوْلِهِ:

صَحَا القَلَبُ عَنْ سَلْمى وَقد كانَ لَا يَسْلو

وأَقْفَرَ من سَلْمَى التَّعَانيقُ فالثِّقْلُ

وَقد كُنْتُ من سَلْمى سِنينَ ثَمَانِيًا

على صِيرِ أَمْرٍ مَا يَمُرُّ ومَا يَحْلُو

فقَوْلُهُ: "يَحْلُو" حَسَنَةُ المَوْقَع

وكَقَوْلِه فِي قَصِيدتِهِ الَّتِي يَقُول فِيها:

لِذي الحِلْمِ من ذُبْيَانَ منِّي مَوَدَّةٌ

وحِفْظٌ، وَمَنْ يُلْجِمْ إِلَى الشَّرِّ أَنْسُجِ

قَوْله:

مَخُوفٍ، كأنَّ الطّيْرَ فِي مَنْزِلاتِهِ

عَلى جِيَفِ الحَسْرَى مَجَالسُ تَنْتَجي

فَقَوْلُهُ: "تَنْتَجي" حَسَنَةُ المَوْقِع جدًّا

وكَقَوْلِهِ:

ولَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ أنْتَ إذَا

دُعِيَتْ: نَزَالِ، وَلُجَّ فِي الذَّعْرِ

وأراكَ تَفْري مَا خَلَقتَ وَبَعْـــــ

ـــــضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثمَّ لَا يَفْرِي

ولأنْتَ أَشْجَعُ حينَ تَتَّجِهُالـ

أبْطَالُ، من لَيْثٍ أبي أجْري

فقولُه: "ثمَّ لَا يَفْري"، و"أبي أجْري" حَسَنانِ فِي مَوْقِعِهِمَا

وكقَوْلِ الأعْشَى:

وَإِذا تكونُ كَتِيبةٌ مَلْمُومَةٌ

خَرْسَاءُ يَخْشَى الذَّائدون نِهَالَها

كُنْتَ المُقَدَّمَ غَيْرَ لابِسٍ جُنَّةٍ

بالسَّيفِ تَضْرِبُ مُعْلِمًا أبطالَها[74]

وعَلِمْتَ أنّ النَّفْسَ تَلْقَى حَتْفَها

مَا كانَ خَالِقُها المَلِيكُ قَضَى لَهَا

فَقَوْلُهُ: "قَضَى لَهَا" عَجِيبةُ المَوْقع

وكَقْولِهِ:

ومثُل الَّذِي تُولونَنِي فِي بُيُوتكم

يُرَوِّي سِنَانًا كالقُدَامَى وثَعْلَبَا

ومَا عندَهُ رِزْقي علمتُ وَلا لَهُ

عليَّ من الرِّيح الجَنُوبِ وَلَا الصَّبَا

فقولُهُ: "الصَّبَا"، حَسَنَةُ الْموقع

وكذلكَ قَوْلُهُ:

وكَأسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ

وأُخْرَى تَداوَيتُ مِنْهَا بهَا

لكَيْ يَعْلَمَ الناسُ أنَّي امرؤٌ

أتيتُ الفتَوَّةَ من بابِهَا

وكَقَوْل أبي كَبيرٍ الـهُذَلـيِّ:

وَلَقَد رَبَأْتُ إذَا الصِّحابُ تَوَاكَلُوا

جَمْرَ الظَّهيرةِ فِي اليَفَاعِ الأَطْوَلِ[75]

فِي رَأسِ مُشْرِفَةِ القَذالِ كأنَّما

أَطُرُ السَّحَاب بَها بَياضُ المِجْدَلِ[76]

ومَعَابلًا صُلْعَ الظُّباتِ كَأَنَّهَا

جَمْرٌ بِمَسْهَكَةٍ تُشَبُّ لِمُصْطَلي

فقَوْلُهُ: "لِمُصْطَلي" مُتَمكِّنَةٌ فِي موضعهَا

وكَقوْل أبي خِرَاشٍ خُوَيلد بن مُرَّة:

وَلم أدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءهُ

سَوى أنَّهُ قد سُلَّ عَن ماجدٍ مَحْضِ

بَلَى: إنَّها تَعْفُو الكُلُومُ وإنَّمَا

نُوَكَّلُ بالأدْنى وإنْ جَلَّ مَا يَمْضي

فَقَوله: "يَمضِي" حَسَنَةٌ جِدًّا

وكَقَولِ عُرْوَة بن أُذَيْنَة:

وكَقوْل أبي خِرَاشٍ وكلُّ هَوًى وإنْ عَنَّى زَمَانًا

لهُ من بَعْدِ مَيْعِتِهِ تَجَلي

كأنِّي لم أكُنْ مِنْ بَعْدِ إلْفٍ

عَذَلْتُ النَّفْسَ قَبْلُ على هَوًى لي

فإنْ أُقْصِرْ فقد أجْرَيْتُ عَصْرًا

وبَلَّاني الهَوىَ فِيمَن يُبَلِّي

فَقَولُهُ: "هَوًى لي" لَطِيفَة المَوْقِع

وكقَوْلِ ذِي الرُّمَّة فِي قَصيدَتِه:

أرَاحَ فَرِيقُ جِيرَتِكِ الجِمالَا

كأنَّهُمُ يُرِيدونَ احْتمَالَا

فَكِدْتُ أَمُوتُ من حَزَنٍ عَلَيْهِم

وَلم أرَ نَاوِيَ الإظعان بَالَى[77]

فقولُهُ: "بَالَى" عَجِيبَةُ المَوْقِع

وكَقَوْلِ الفَرَزْدَق:

فإنْ تَهْجُ آل الزِّبْرِقَانَ فإنَّما

هَجْوت الطِّوالَ الشُّمَّ من هَضْبِ يَذْبُلِ

وَقد يَنْبَحُ الكَلْب النُّجُومَ وَدُونهُ

فَرَاسِخُ تُنْضِي الطَّرفَ للمتأمِّلِ

أرَى اللَّيْل يَجْلوهُ النَّهارُ وَلَا أرَى

عِظَامَ المَخَازِي عَن عَطِيَّةَ تَنْجلي

فَقَولُهُ: "تَنْجلي" مُتَمكِّنَةٌ فِي مَوْضِعِها

وكقَوْلِ الحُطَيئَة:

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لَا يَعْدَمْ جَوازِيَهُ

لَا يَذْهَبُ العُرْفُ بَين اللهِ والنَّاسِ

دَعِ المكارِمَ، لَا تَرْحَلْ لُبُغْيَتِها

واقعُدْ، فإنَّك أَنْت الطِّاعمُ الكاسي

فَقَوْلُهُ: "الكَاسِي" عَجِيبَةُ المَوْقع

وكقَوْلِه:

إذا نَزَل الشِّتَاءُ بِدَارِ قَوْمٍ

تَجَنَّبَ دارَ قَوْمِهِمُ الشِّتَاءُ

هُمُ القَوْمُ الَّذين إذَا أَلمَّتْ

من الأيَّامِ مُظْلِمَةٌ أضَاؤوا

فَقَوْلهُ: "أضَاؤوا" حَسَنَةُ المَوْقع

فَهذِهِ أمْثلةٌ قد احْتَذَى عَلَيْهَا المُحْدَثون من الشُّعراءِ، وسَلَكوا مِنْهَاجَ مَنْ تَقدَّمَهُمْ فِيهَا، وأبْدَعُوا فِي أشْيَاءَ مِنْهَا سَتَعْثُر بهَا فِي أشْعَارِهِمْ، كقَوْلِ أبي عُيَيْنَة المُهَلَّبي:

دُنْيَا دَعَوْتُكِ مُسْمِعاً فأجِيبي

وَبِمَا اصْطَفَيْتُكِ للهَوَى فأثيبي

دُومي أدُمْ لكِ بالوَفَاءِ على الصَّفَا

إنِّي بِعَهْدِكِ واثقٌ فَثقِي بِي

فقولُهُ: "فَثِقِي بِي" لطيفَةٌ جِدًّا، فَيُسْتَدَلُّ بهَا على حِذْقِ قَائِلِهَا بنَسْجِ الشِّعْر

التَّخَلُّص وطرقُهُ عِنْد القُدَماء والمُحْدَثين

وَمن الأبْياتِ الَّتِي تَخَلَّص بهَا قَائِلُوها إِلَى الْمعَانِي الَّتِي أرادوها من مَديح، أَو هِجَاءٍ، أَو افتِخَارٍ، أَو غير ذَلِك، ولَطُفُوا فِي صِلَةِ مَا بَعْدَهَا بهَا فصارَتْ غَيْر مُنْقطِعَةٍ عَنْهَا؛ مَا أبْدَعَهُ المُحْدَثون من الشُّعَراء دون مَن تَقَدَّمَهُمْ؛ لأنَّ مَذْهَبَ الأوَائل فِي ذَلِك مَذْهَبٌ واحدٌ وَهُوَ قولُهُمْ عَند وَصْفِ الفَيَافي وقَطْعِهَا بسَيْرِ الفَيافي، وحِكَايَةِ مَا عَانَوا فِي أسْفارهم: إِنَّا تجشَّمْنَا ذَلِك إِلَى فُلانٍ؛ يَعْنُونَ المَمْدوحَ، كَقَوْل الأَعْشَى:

إِلَى هَوْذَةَ الوَهَّابِ أزْجي مَطِيَّتي

أرَجِّى عَطاء صَالحًا من نَوَالِكَا[78]

أَو يُسْتَأنَف الكَلامُ بَعْد انقِضَاءِ التَّشْبيب، ووَصْفِ الفَيَافي والنُّوق وَغَيرهَا، فَيُقْطَع عَمَّا قبلَهُ، ويُبتدأ بمعنَى المَدِيح، كقَوْلِ زُهَير:

وأبْيَضَ فَيَّاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ

عَلى مُعْتَفيهِ مَا تُغِبُّ نَوافِلُه

أو يُتَوصَّل إِلى المَديحِ بعد شَكْوَى الزّمان وَوَصْفِ مِحَنِهِ وخُطوبهِ، فَيُسْتَجار مِنْهُ بالمَمْدوح

أَو يُسْتَأنَف وَصْفُ السَّحَاب أَو البَحْر أَو الأسَدِ أَو الشَّمْسِ أَو القَمَر، فَيُقَال:

فَمَا عَارِضٌ

أوْ:

فَمَا مُزْبِدٌ

أوْ:

فَمَا مُخْدِرٌ

أوْ:

فَمَا الشَّمْسُ

أوْ:

فما البَدْرُ

بأجْوَدَ

أو:

بأشْجَعَ

أوْ:

بأحسَنَ من فُلان

يَعْنُون: المَمْدوح فسَلَكَ المُحْدَثُونَ غَيْرَ هَذِه السَّبيلِ، وَلَطَّفوا القَوْلَ فِي مَعْنى التَخَلُّص إِلَى المَعَاني الَّتِي أرَادُوها، فَمن ذَلِك قَوْلُ مَنْصُور النَّمَرِيِّ:

إِذَا امْتنَعَ المَقَالُ عَلَيْك فامْدَحْ

أمِيرَ المؤمنينَ تَجِدْ مَقَالا

فَتَى مَا إنْ تَزَال بِهِ رِكَابٌ

وَضَعْنَ مَدَائِحًا وَحَمَلْنَ مَالَا

مَا يَنْبَغي للشَّاعر تجنُّبُهُ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إتيانُه

وَيَنْبَغِي للشَّاعر أنْ يَجْتَنِبَ الإشَارَاتِ البَعيدةَ، والحكاياتِ الغَلِقَة، والإيَماءَ المُشْكِلَ، ويتعَمَّدَ مَا خالَف ذَلِك، وَيَسْتَعْمِل من المَجَازِ مَا يُقَارب الحَقيقَة، وَلَا يُبْعُدُ عَنْهَا؛ وَمن الاستعَاراتِ مَا يليقُ بالمعاني الَّتِي يَأْتِي بِهَا

فمِن الحِكَاياتِ الغَلِقَةِ قَوْلُ المُثَقِّبِ فِي وَصْفِ ناقَتِه:

تَقُولُ وَقَدَ دَرَأتُ لَهَا وَضِيني

أهَذَا دينُهُ أبَدًا وَدِيني[79]

أكُلَّ الدَّهْرِ حِلٌّ وارتِحَالٌ

أمَا يُبْقي عَلَيَّ وَلَا يَقِيني؟!

فَهَذِهِ الحِكايَةُ كلَّها عَن ناقَتِهِ من المَجَاز المُبَاعِد للْحَقِيقَة وإنَّما أرَادَ الشَّاعِرُ أنّ النَّاقَةَ لَو تَكَلَّمَتْ لأعْرَبَتْ عَن شَكْوَاهَا بمِثْل هَذَا القَوْل

وَالَّذِي يُقارِب الحَقِيقةَ قَوْلُ عَنْتَرة فِي وَصْفِ فَرَسِه:

فازورَّ عَن وَقْعِ القَنا بلبَانِهِ

وشَكَا إليَّ بِعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ

ومَن الإيماءِ المُشْكِل الَّذِي لَا يُفْهَمُ، وَقد أفْرَطَ قائِلُهُ فِي حِكَايَتِهِ؛ قَوْلُ الآخَر:

أوْمَتْ بَكَفَّيْهَا من الهَوْدَجِ

لولاكَ هَذا العَام لم أحْجُجِ

أنْتَ إِلَى مَكَّةَ أخْرَجْتَني

حُبًّا، وَلَوْلَا أنْتَ لم أخْرُجِ

فَهَذَا الكَلامُ كُلُّهُ لَيْس مِمَّا يَدُلَّ عَلَيْهِ إيماءٌ، وَلَا يُعَبِّر عَنهُ إشَارةٌ

وَلَيْسَت تَخْلُو الأشْعَارُ من أنْ يُقْتَصَّ فِيهَا أَشْيَاءُ هِيَ قَائمةٌ فِي النُّفوسِ والعُقول، فَتَحْسُنُ العِبَارةُ عَنْهَا، وإظْهَارُ مَا يكمُنُ فِي الضَّمَائر مِنْهَا، فَيَبْتَهِجُ السَّامِعُ لما يَرِدُ عليهِ مِمَّا قد عَرَفَهُ طَبْعُهُ، وقَبِلَهُ فَهْمُهُ، فَيُثَارُ بذلك مَا كانَ دَفِينًا، ويُبْرَزُ بِهِ مَا كانَ مَكْنُونًا، فَيَنْكَشِفُ للفَهْمِ غِطاؤه، فَيَتَمكَّنُ من وُجْدانِهِ بعد العَنَاءِ فِي نشْدانه

أَو تُودَعَ حِكْمَةً تألَفُها النُّفوسُ، وتَرْتَاحُ لصِدْق القَوْلِ فِيهَا، وَمَا أتَتْ بِهِ التَّجاربُ مِنْهَا أَو تُضَمَّنَ صِفَاتٍ صَادِقَةً، وتَشْبيهاتٍ مُوافِقَةً، وأمثالًا مُطَابِقَةً يُصَابُ حقائِقُهَا، وَيُلْطَفُ فِي تَقْريبِ البَعِيد مِنْهَا، فَيُونِسُ النَّافِرَ الوَحْشِيَّ حَتَّى يَعُودَ مألوفًا محبوبًا، ويُبْعِدُ المَألوفَ المَأنُوسَ بِهِ حَتَّى يَصِيرَ وحْشِيًّا غَريبًا، فإنَّ السَّمْعَ إذا وَرَدَ عَلَيْهِ مَا قَدْ مَلَّهُ من المَعَاني المُكَرَّرَةِ والصِّفاتِ المَشْهورةِ الَّتِي قد كَثُرَ وُرُودُها عَلَيْهِ مَجَّهُ، وثَقُلَ عَلَيْهِ وَعْيُهُ، فَإذا لَطُفَ الشَّاعِرُ لشَوْبِ ذَلِك بِمَا يُلْبِسُهُ عَلَيْهِ فَقَرَّبَ مِنْهُ بَعِيداً، أَو بَعَّد مِنْهُ قَرِيبًا، أَو جَلَّلَ لَطِيفًا، أَو لَطَّفَ جَلِيلًا، أصْغَى إِلَيْهِ، وَوَعَاهُ، واستحسنَهُ السَّامِعُ واجْتَبَاهُ وَهَذَا تَطْرِيقٌ إِلَى تَناوُلِ الْمعَانِي واسْتعارَتِها، والتَّلَطُّفِ فِي اسْتِعْمَالهَا على خلاف جهَاتِهَا الَّتِي تُتَنَاوَلُ مِنْهَا

أَو تُضَمَّنَ أَشْياءَ تُوجِبُهَا أحْوالُ الزَّمَانِ على اختلافِهِ، وحَوادِثُه على تَصرُّفِهَا، فيكونُ فِيهَا غَرَائِبُ مُسْتَحْسَنَةٌ، وعَجَائبُ بَديعَةٌ مُسْتَطْرَفَةٌ من صِفَاتٍ وحِكَاياتٍ ومُخَاطَباتٍ فِي كُلِّ فَنٍّ توجِبُهُ الحَالُ الَّتِي يُنْشأ قَوْلُ الشِّعر من أجْلِهَا؛ فَتُدْفَعُ بِهِ العَظَائمُ، وَتُسَلُّ بِهِ السَّخَائمُ، وتُخْلَبُ بِهِ العُقُولُ، وتُسْحَرُ بِهِ الألْبَابُ؛ لما يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ من دَقِيقِ اللَّفظ ولَطِيفِ المَعْنَى

وإذْ قَدَ قَالَتِ الحُكَمَاءُ أنَّ للكَلَامِ جَسَدًا ورُوحًا؛ فَجسَدُهُ النُّطْقُ ورُوحُهُ مَعْنَاه، فَوَاجِبٌ على صَانِعِ الشِّعر أنْ يَصنَعَهُ صَنْعَةً مُتْقَنَةً لَطِيفَةً مَقْبُولَةً مُسْتَحْسَنةً مُجْتَلِبَةً لمحبَّةِ السَّامِع لَهُ والنَّاظِر بِعَقْلِهِ إِلَيْهِ، مُسْتَدْعِيَة لعِشْقِ المُتَأمِّل فِي محاسِنه والمُتَفَرِّسِ فِي بدائعه، فَيُحْسِنُهُ جِسْمًا، ويُحَقِّقُهُ رُوحًا؛ أَيْ: يُتْقِنُهُ لَفْظًا، ويُبْدِعُهُ مَعْنًى، ويَجْتَنِبُ إخراجَهُ علِى ضِدِّ هَذِه الصِّفة، فَيَكْسوهَا قُبْحًا، ويُبْرِزهُ مَسْخًا؛ بل

يُسَوِّي أعْضَاءهُ وزْنًا، ويُعَدِّل أجزَاءَه تأليفًا، ويُحَسِّنُ صُورَتَهُ إصَابةً، ويُكَثرُ رَوْنَقَهُ اختصارًا، ويُكَرِّمُ عُنْصُرَهُ صِدْقًا، ويُفِيدهُ القَبُول رقّةً، ويُحَصِّنُهُ جَزالةً، ويُدْنيه سَلاسَةً، وينأى بِهِ إعجازًا، ويعْلَمُ أنه نَتِيجةُ عَقْلِه، وثَمَرةُ لُبِّهِ، وصُورةُ علمِهِ، والحاكِمُ عَليهِ أو لَهُ

ويَنْبَغي للشَّاعِرِ أَن يَحْتَرِزُ في أشعارِه ومُفْتَتَحِ أقوالهِ مِمَّا يُتَطَيَّرُ بِهِ أَو يُسْتَجْفَى من الكلامِ والمُخَاطباتِ؛ كَذِكْرِ البُكَاءِ، ووَصفَ إقْفَارِ الديارِ، وتَشَتُّتِ الألَّاف[80]، ونَعْيِ الشَّبابِ، وذَمِّ الزَمان، لَا سيَّما فِي القَصَائدَ الَّتِي تُضَمَّنُ المَدائحَ أَو التَّهاني، ويَسْتعملُ هَذِه المَعاني فِي المَرَاثي، ووَصْفِ الخُطوب الحَادِثة، فَإِنَّ الكَلام إذا كانَ مؤسَّسًا على هَذَا المِثَال تَطَيَّر مِنْهُ سامِعُهُ، وإنْ كانَ يَعْلَمُ أنَّ الشَّاعِرَ إنَّما يُخَاطِبُ نَفْسَهُ دونَ المَمْدوحِ، فيَتَجنَّبُ مثل ابتداءِ قَولِ الأعْشَى:

مَا بُكاءُ الكَبيرِ بالأطْلالِ

وسُؤالي، وَهل تَرُدُّ سُؤَالِي

دِمْنَةٌ قَفْرةٌ تعاوَرَهَا الصَّيْـــ

ــــــفُ بِرِيحَيْن من صَبًا وشَمَالِ

ومِثْلَ قَولِ ذِي الرُّمَّةِ:

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الماءُ يَنْسَكبُ

كأنَهُ من كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ

وَقد أنكرَ الفَضْلُ بن يَحيى البَرْمَكِيُّ على أبي نواسٍ قولَهُ:

أربْعَ البِلَى! إنَّ الخُشُوعَ لَبَادِي

عليكَ، وإنِّي لم أخُنْكَ وِدَادي

وتَطَيَّر مِنْهُ فلمَّا انْتهى إلَى قَوْله:

سَلامٌ على الدُّنَيا إِذا مَا فُقِدْتُمُا

بني بَرْمَكٍ من رَائحينَ وغَادي

استحكم تطيُّرُه، فيقال: إنّه لم ينقضِ الأسبوعُ حتى نزلت به النازلة

وأنْشَدَ البُحْتُريُّ أَبَا سَعيدٍ محمدَ بنَ يُوسف الثَّغْري قَصِيدَتَهُ الَّتِي أوَّلُها:

لكَ الوَيْلُ من لِيلٍ تَطَاوَلَ آخِرُهْ

ووَشْكِ نَوَى حَيٍّ تُزَمُّ أَبَاعِرُهْ

فَقَالَ أَبُو سَعيد: الوَيْلُ لكَ والحَرْب!

ولْيَجتَنِبِ التشَّبِيبَ بِامْرَأَةٍ يُوافقُ اسمُها اسمَ بعض نِسَاءِ المَمدُوحِ من أمِّهِ، أَو قرابتهِ أَو غَيْرِهِمَا وَكَذَلِكَ مَا يَتَّصِلُ بِهِ سَبَبُهُ، أَو يَتَعلَّقُ بِهِ وَهْمُهُ؛ فإنَّ أرْطأةَ بنَ سُهَيَّة الشَّاعِرَ دخَلَ على عَبْد المِلِكِ بْن مروان فقَالَ لَهُ: مَا بَقِيَ من شِعْرك؟ فَقَالَ: مَا أَطْرَبُ وَلَا أحْزَنُ يَا أميرَ الْمُؤمنِينَ، وإنَّما يُقالُ الشِّعرُ لأحَدِهما، ولكنِّي قد قلت:

رأيتُ الدَّهْر يأكُلُ كُلَّ حَيٍّ

كأكْلِ الأرضِ ساقِطَة الحَديدِ

وَمَا تَبْغي المَنِيَّةُ- حِينَ تَعْدو-

سوى نَفْسِ ابنِ آدَمَ من مَزِيدِ[81]

وأحْسِبُ أنَّها سَتكِرُّ حتَّى

تُوفِّي نَذْرَهَا بِأبي الوَلِيدِ

فَقَالَ لَهُ عبد الْملك: مَا تَقول ثَكِلَتْكَ أمُّك؟! فَقَالَ: أَنا أَبُو الْوَلِيد يَا أَمِيرَ الْمُؤمنِينَ! وَكَانَ عبدُ المَلك يُكَنَّى أَبَا الْوَلِيد أَيْضًا، فَلم يَزَلْ يَعْرِفُ كراهَةَ شِعْرهِ فِي وَجْهِ عَبْدِ المَلِك إِلَى أنْ مَاتَ!

فَلْيَجتَنِبِ الشَّاعِرُ هَذَا وَمَا شاكَلَهُ مِمَّا سَبِيلُه كسبيلِهِ، وَإِذا مَرَّ لَهُ مَعْنًى يُستَبْشَعُ اللَّفْظ بِهِ لَطُفَ في الكنايةِ عَنهُ، وأَجَلَّ المخاطَبَ عَن اسْتِقْبالِهِ بِمَا يتكرَّهُهُ مِنْهُ، وعَدَلَ اللَّفظ عَن كَافِ المَخَاطَبةِ إِلَى يَاءِ

الإضَافةِ إلى نَفْسِهِ إنْ لم يَنْكسِرِ الشِعْر، أو احْتَال فِي ذلِك بِمَا يَحْتَرِزُ بِهِ مِمَّا ذمَمْنَاهُ، ويُوقفَ بِهِ على أدَبِ نفسِهِ، ولُطْفِ فَهْمِهِ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ:

وَلَا تَحْسَبنَّ الْحُزْنَ يَبْقَى فإنَّهُ

شِهابُ حَرِيقٍ واقِدٌ ثمَّ خَامِدُ

سآلَفُ فُقْدَانَ الَّذِي قَدْ فَقَدْتُهُ

كالْفِكَ وِجدَانَ الَّذِي أنتَ واجِدُ

وإنَّما أَرَادَ الشَّاعرُ: ستألَفُ فُقدانَ الَّذِي قَد فَقَدْتَهُ كالْفِكَ وجْدَانَ الَّذِي قد وَجَدْتَهُ؛ أَي: تَتعزَّى عَن مُصِيبَتِكَ بالسُّلُوِّ فانظُرْ كَيفَ لَطُفَ فِي إضافَةِ ذكر المَفقودِ الَّذِي يُتَطَيَّرُ مِنْهُ إلَى نَفسِهِ، وَمَا يُتفاءَلُ إلَيْهِ من الوِجدانِ إلَى المُخَاطَبِ، فَجَعَل المَوْجودَ المألوفَ للمُعَزَّى، والمَفقُودَ لِنَفْسِهِ

ويَنْبَغِي للشَّاعِرِ أنْ يتأمَّلَ تأليفَ شِعْرِهِ، وتَنْسِيقَ أبياتِهِ، وَيَقِفَ على حُسْنِ تجاوُرِها أَو قُبْحِهِ فيُلائمُ بَينهَا لتَنتظم لَهُ مَعَانِيهَا ويَتَّصِلَ كَلامُه فِيهَا، وَلَا يَجْعَل بَين مَا قَدِ ابتَدَأ وَصْفَهُ وَبَين تَمامِهِ فضلًا من حَشْوٍ لَيْسَ من جِنْسِ ما هو فِيهِ فَيُنسِيَ السَّامِعَ المَعْنَى الَّذِي يَسُوقُ القَولَ إلَيْهِ كَمَا أَنَّه يَحْتَرِزُ مِنْ ذَلِك فِي كُلِّ بَيْتٍ، فَلَا يُبَاعِدُ كَلِمَةً عَن أخْتِها، وَلَا يَحْجِزُ بَينهَا وَبَين تَمامِها بِحَشْوٍ يَشِينهَا، ويَتفَقَّدُ كلَّ مِصْرَاعٍ هَلْ يُشَاكِلُ مَا قَبْلَهُ، فَرُبَّما اتَّفَقَ للشَّاعرِ بيتانِ يَضَعُ مِصْراعَ كلِّ وَاحدٍ مِنْهُمَا فِي مَوضع الآخر، فلا يَتَنبَّهُ على ذَلِك إلّا مَنْ دَقَّ نَظَرُه ولَطَفَ فَهْمُهُ

ورُبَّما وَقَعَ الخَللُ فِي الشِّعر من جِهَةِ الرُّواةِ والنَّاقلينَ لَهُ، فَيَسْمَعونَ الشِّعرَ على جِهَتِهِ، ويؤَدُّونَهُ على غَيرِهَا سَهْوًا، وَلَا يَتَذَكّرون حَقيقةَ مَا سَمِعُوهُ مِنْهُ، كقولِ امرئ القَيسِ:

كأنِّيَ لم أرْكَبْ جَوَدًا للَذَّةٍ

وَلم أتَبَطَّنْ كاعِبًا ذاتَ خَلْخَالِ

وَلم أسْبَأ الزَّقَّ الرَّوِيَّ وَلمْ أقُلْ

لخَيلْي: كُرِّي كَرَّةً بعد إجفَالِ[82]

هَكَذَا الرِّواية

وهما بَيْتَانِ حَسَنانِ، وَلو وُضِعَ مِصْرَاعُ كلَ واحِدٍ منها فِي مَوضِع الآخرِ كانَ أشْكَل وأدْخَل فِي استواءِ النَّسج، فكانَ يُرْوَى:

كأنِّيَ لم أركَبْ جَوَاداً وَلم أقُلْ

لخَيْلي: كُرِّي كَرَّةً بعد إجفالي

وَلم أسْبَأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ لِلَذَّةٍ

وَلم أتَبَطَّنْ كاعِبًا ذاتَ خَلْخالِ

وكَذلك قَول ابنِ هرْمة:

وَإنِّي وتَرْكي نَدَى الأكرَمِينَ

وقَدْحِي بكَفِّي زِنادًا شَحَاحَا

كتارِكَةٍ بَيْضهَا بالعَراءِ

ومُلبِسَةٍ بَيْضَ أُخْرَى جَنَاحَا

وكَقْولِ الفَرَزدق:

وإنَّك إذْ تَهْجو تَمِيمًا وتَرْتَشِي

سَرَابيلَ قَيسٍ أَو سُحوقَ العَمَائِمِ

كمُهْرِيقِ ماءٍ بالفَلاةِ وغَرَّهُ

سَرابٌ أذَاعَتْهُ رياحُ السَّمائم

فالمِصْرَاعُ الثَّانِي غيرُ مُشاكِلٍ للأوَّل، وإنْ كاَن كُلُّ واحدٍ مِنْهُمَا قَائمًا بنَفْسِه

وأحسَنُ الشعْرِ مَا يَنتَظِمُ فِيهِ القَوْل انتظامًا يَتّسِقُ بِهِ أوّلهُ مَعَ آخِرِهِ على مَا يُنَسِّقَهُ قائِلهُ، فإنْ قدّم بَيْتٌ على بَيْتٍ دَخَلَهُ الخَلَلُ كَمَا يدخُلُ الرَّسَائِلَ والخُطَبَ إذا نُقِضَ تأليفُهَا فإنَّ الشِّعر إذا أُسِّسَ تأسيسَ فُصُولِ الرَّسائل الْقَائِمَة بأنْفسِهَا، وكَلِماتِ الحِكْمَةِ المُستَقِلَّةِ بِذاتِهَا، والأمْثَالِ السَّائرةِ المَوسُومَةِ باختِصَارها؛ لم يَحْسُنْ نَظمُهُ، بل يَجِبُ أنْ تكونَ القَصِيدةُ كُلُّها كَلِمَةً وَاحِدَةً فِي اشتباهِ أوَّلِهَا بآخِرِهَا نَسْجاً وحُسْناً وفَصَاحَةً وجَزَالةَ ألفَاظٍ ودِقَّةَ مَعَانٍ وصَوَابَ تأليفٍ وَيكون خُرُوجُ الشَّاعرِ من كُلِّ مَعْنًى يضِيفهُ إلَى غَيرهِ من الْمعَانِي خُروجاً لطِيفاً، حَتَّى تَخْرُجَ القَصِيدةُ كأنَّها مُفْرغةٌ إفْراغاً، كالأشعار الَّتِي اسْتَشْهَدْنَا بهَا فِي الجَودةِ والحُسْنِ واسْتِواءِ النَّظْم، لا تناقُضَ فِي مَعَانِيهَا، وَلَا وَهْيَ فِي مَبَانِيها، وَلَا تَكَلُّفَ فِي نَسْجِهَا، تَقْتضي كُلُّ كَلِمَةٍ مَا بَعْدَهَا، ويكونُ مَا بَعْدَهَا مُتَعلِّقًا بهَا مُفْتَقراً إلَيْهَا

فَإذا كانَ الشِّعْرُ على هَذَا التَّمثيلِ سَبَقَ السَّامعُ إِلَى قَوَافيهِ قَبلَ أنْ يَنْتَهِي إليْها رَاويهِ، وَرُبَّمَا سَبَقَ إلَى إتْمَامِ مِصْرَاعٍ مِنْهُ اضْطِرارًا يُوجُبهُ تأسِيسُ الشِّعْرِ، كقولِ البُحْتُريِّ:

سَلَبُوا البِيضَ بَزَّها فأقَامُوا

بظباها التأويلَ والتَّنزِيلا

فَإذا حَارَبُوا أذَلُّوا عَزِيزًا

....

يَقْتَضِي هذَا المِصْراع أنْ يَكُونَ تمامُهُ:

....

وَإذا سَالَمُوا أعَزُّوا ذَلِيلا

وكقَولِهِ:

أحَلّتْ دَمي من غَيْرِ جُرْمٍ وَحَرَّمَتْ

بِلَا سَبَبٍ يَوْمَ اللِّقاءِ كَلامي

فداؤُكِ مَا أبْقَيْتِ مِنِّي فإنَّه

حُشَاشَةُ حُبٍّ فِي نُحولِ عِظَامِ

صِلِي مُغْرَماً قد واتَر الشَوْقَ دَمْعَهُ

سِجَامًا على الخَدَّينِ بعد سِجَامِ

فَليسَ الَّذِي حَلَّلتِهِ بِمُحَلَّلٍ

....

يَقْتَضِي أَن يكونَ تَمامُهُ:

....

ولَيْسَ الَّذِي حَرَّمْتِهِ بحَرَامِ

وأحسَنُ الشِّعْر مَا يُوضَعُ فِيهِ كلّ كَلِمَةٍ مَوْضِعَهَا حَتَّى تُطابِق المَعْنَى الَّذِي أرِيدَتْ لَهُ، ويكونُ شَاهِدُهَا مَعَهَا لَا يحتاجُ إِلَى تَفْسِير من غَيرِ ذاتِها كَقَولِ جَنُوبَ أَخْتِ عَمْرو ذِي الكَلْب:

فأقسَمْتُ- يَا عَمْرُو- لَو نَبَّهَاكَ

إِذًا نَبَّهَا مِنْكَ دَاءً عُضَالاَ

إِذا نَبَّهَا ليْثَ عِرِّيسَةٍ

مُفِيتاً مُفِيداً نُفُوساً ومَالاَ

وخَرْقٍ تَجَاوَزْتَ مَجْهولَهُ

بوَجْنَاءَ حَرْفٍ تَشَكَّى الكَلاَلاَ

فكُنْتَ النَّهَارَ بهِ شَمْسهُ

وكنْتَ دُجَى اللَّيْلِ فِيهِ الهِلاَلاَ

فتأمَّلَ تَنْسِيقَ هَذا الْكَلام وحُسْنَهُ، وقَولِهَا: مُفِيتًا مُفِيدًا، ثمَّ فَسَّرَتْ ذلِك فقَالتْ: نُفوسًا ومالًا، ووَصَفتَهُ نَهاراً بالشَّمسِ ولَيْلًا بالهلالِ فَعَلى هَذَا المثَالِ يجب أَنْ ينَسَّقَ الكَلامُ صدقًا لَا كَذِبَ فيهِ، وحَقيقةً لَا مَجَازَ مَعَها فَلْسَفيًّا، كقولِ القَائِلِ:

وَفِي أربعٍ منِّي حَلَتْ مِنْكَ أرْبَعٌ

فَمَا أَنا دَارٍ أيُّهَا هَاجَ لي كَرْبي

أوَجْهُكِ فِي عَيْني أم الرِّيقُ فِي فَمي

أم النُّطْقُ فِي سَمْعي أم الحُبُّ فِي قلبِي

حُدود القَوافي

وسألْتَ- أسْعَدَكَ الله- عَن حُدودِ القَوافي، وعلَى كَم وَجْهٍ تتَصرَّفُ؟

وقَوافي الشِّعر كُلَّها تَنْقَسِمُ على سَبْعَةِ أقسامٍ:

إِمَّا أَنْ تكون على فاعِلٍ، مثل: كَاتِب، وحَاسِب، وضَارِب

أَو عَلَى فَعَّالٍ، مثل: كَتَّاب، وحسَّابِ، وجَوَّاب

أَو عَلَى مَفْعَلٍ، مثل: مَكْتَب، ومَضْرَب، ومَرْكَب

أَو عَلَى فَعِيلٍ، مثل: حَبِيب، وكَثِيب، وطَبيب

أو عَلى فَعَلٍ، مثل: ذَهَب، وحَسَب، وطَرَب

أَو عَلَى فَعْلٍ، مثل: ضَرْب، وقَلْب، وقَطْب

أَو عَلَى فُعَيْلٍ، مثل: كُلَيْب، ونُصَيْب، وعُذَيْبِ

على هَذَا حَتَّى تأتِيَ على الحُروفِ الثَّمانيةِ والعِشْرين؛ فَمِنْهَا مَا يُطْلَقُ، وَمِنْهَا مَا يُقَيَّد

ثُمَّ يُضَافُ كلُّ بناءٍ مِنْهَا إِلَى هاءِ المُذَكَّرِ أَو المؤنث، فَتَقول:

كاتِبُهُ أَو كاتِبُهَا

أَوْ كُتَّابُهُ أَو كُتَّابُهَا

أَوْ مَرْكَبُهُ أَو مَرْكَبُهَا

أَوْ حَبِيبُهُ أَوْ حَبِيبُهَا

أَوْ ذَهَبُهُ أَوْ ذَهَبُهَا

أَوْ ضَرْبُهُ أَو ضَرْبُهَا

أَوْ كُلَيْبُهُ أَو كُلَيْبُهَا

ويَتَّفِق هَذَا فِي الرَّجَز

فَهذه حُدودُ القَوافي الَّتِي لم يَذْكُرها أَحَدٌ مِمَّنْ تَقَدَّمَ، فأدِرْهَا على جَميع الحُروفِ، واخْترْ أعذبَها وأشْكَلَها للمَعْنى الذِي تَرُومُ بنَاءَ الشِّعْرِ عليهِ

نَفَعَكَ اللهُ بِفَهْمِكَ، ومَتَّعَكَ بِعْلمِكَ، وأسْعَدكَ فِي الدَّاريْنِ بِمَنِّه ورأفَتِهِ



1. المفرغة: المتّصلة التي لا تقطّع فيها ↥

2. مونق لفظه: الجميل والأنيق

↥

3. الموالج: المداخل

↥

4. وَهَى: ضعف ↥

5. يفوّف: يزيّن ↥

6. يسدّيه: يمدّ ما بين خيوطه ↥

7. ينيره: يقيّده ↑

8. صارم غضب: سيف قاطع ↑

9. نافق: رائج ↑

10. الزَّبْر: الكتابة، ومنها الزَّبور ↑

11. السَّعَر: جنون وسفه واهتياج ↑

12. حينه: موته ↑

13. حجل: مقيّد ↑

14. أحدُ خطباء العصر الأموي، وكان والي الكوفة والبصرة للخليفة هشام بن عبد الملك ↑

15. شامه: قاربه وداناه ↑

16. البسطة من النساء: الحسنة الجسم الناعمة ↑

17. الإبرام: الإحكام والتدبير ↑

18. الخور: الضعف ↑

19. العيّ: العجز في الكلام، ضدّ الفصاحة ↑

20. مجّه: كرهه ↑

21. الموالج: المداخل ↑

22. الكدر: ما يشوبه من أشياء تعيبه ↑

23. الأرابيح: جمع رائحة ↑

24. الصديان: الظمِئ ↑

25. الرُّقى: جمع رُقية، وهي العوذة التي يرقى بها المريض ونحوه ↑

26. السخائم: الأحقاد ↑

27. الحشف: البقايا اليابسة من الأطعمة ↑

28. الجزع: نوع من العقيق ↑

29. موضونة: الدرع المنسوجة حلقتين حلقتين ↑

30. الجدجد: الأرض الصُلْبة المستوية ↑

31. الصفرد: طائر لا ينام طول الليل، وزعموا أنّه يتعلق ببعض أغصان الشجرة كي لا ينام وهذا من فرط جبنه ↑

32. الحيا: المطر ↑

33. تشبّ: توقد القُفّال: جمع قافل، وهو الراجع إلى منزله ↑

34. العُرّ: القروح ↑

35. الجلاجل:الأجراس ↑

36. السليم: من الأضداد، وتعني المريض ↑

37. قعاقع: الصوت القوي ↑

38. الحَوب: الحزن واهم والبلاء ↑

39. المَذْل: الضعف والمرض والحذر ↑

40. إياة الشمس: ضياؤها وشعاعها ↑

41. ثعلاً: تراكب الأسنان بعضها فوق بعض ↑

42. الأشر: التحزيز في الأسنان ↑

43. الغُلْمَة: شدة الشهوة الجنسية ↑

44. بَيْقور: جماعة من البقر مع رُعاتها ↑

45. كرّر النهيق ↑

46. الجزوع: الخائف والقلق ↑

47. دعدع: كلمة تَقال للعاثر بمعنى: اسلمْ ↑

48. التينة ↑

49. أخدجت الناقة إذا جاءت بولدها ناقص الخلق، وفي الحديث: "كلّ صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خِدَاج"، أي: ناقصة ↑

50. بأغمار: بذي تجربة ↑

51. يسبّ: يلحقه العار منها وختّار: غدّار ↑

52. جذوة الوتد: أصله ↑

53. بإجّانة: الماء المتغير الطعم واللون ↑

54. فقاح: حلقة الدبر

↑

55. أقباش السباع: أراذلها ↑

56. الشاذياخ: مدينة بنيسابور ↑

57. بزّ: نُزع ↑

58. الوشل: القليل من الدمع ↑

59. الثلّة: الجماعة من الناس ↑

60. تخدي: تسير ↑

61. الضغن: الحقد الشديد ↑

62. الرّغاب: جمع رغبة ↑

63. قطينًا: عبيدًا ↑

64. مستماز: ابتعاد ↑

65. لعا: دعاء ↑

66. غواربهم: جموعهم ↑

67. الألهوب: الجري الشديد الذي يبعث التراب كالدخان والدرة: شدة الدفع والأخرج: ذكر النعام ومهذب: سريع ↑

68. الوصب: المرض ↑

69. يمريه: المرية: الشكّ ↑

70. الموماة: اسم موضع ومنجدة: قاصدة نجد في الحجاز ↑

71. سجوف الحجال: الفتيات المنعّمات القابعات في البيوت ↑

72. العطاس: انبلاج الفجر ↑

73. الإثمد: حجر يُكتحل به ↑

74. جُنّة: درع ↑

75. اليفاع: ما ارتفع من الأرض ↑

76. القذال: جماع مؤخر الرأس ↑

77. الإظعان: الرحيل والسفر ↑

78. المقصود هوذة بن علي بن ثمامة صاحب اليمامة، وخطيب بني حنيفة ↑

79. الوضين: بطان عريض منسوج من الجلد ↑

80. تشتت الأولاف: تفرّق الأحباب ↑

81. المنيّة: الموت ↑

82. أسبأ: أشتري والإجفال: الانهزام بسرعة ↑

Table of Contents